روايات

ZAINAB AL-SOUD

نطفة في قلب غسّان كنفاني

زينب السعود

الأهلية

مكتبة ياسمين

A BEAT IN GHASSAN KANAFANI'S HEART

روايات

نطفة في قلب غسّان كنفاني

رواية "**نطفة في قلب غسّان كنفاني**" للروائيّة **زينب السعود** هي ثالث أعمالها الروائية بعد روايتيها "**الحرب التي أحرقت تولستوي**" و"**العبور على طائرة من ورق**". وهذه الروايات الثلاث تقف بنا أمام صوت روائيّ متميز يدرك دور الكاتب ورسالته في الحياة، وأنّه لا يكون كاتبًا حتّى يكون منحازًا لقضايا مجتمعه، كما تقول الكاتبة نفسها.

والرواية التي بين أيدينا تأخذ شكل الرواية السيرذاتية من حيث استخدامها تقنيات السيرة الذاتية في تشكيل نصّها السرديّ، ولا تغيب عنها بعض تقنيّات فنّ الرحلة، التي أتاحت للكاتبة توسعة الإطار المكانيّ لأحداثها عندما تنقّل بطلاها داخل الخريطة الفلسطينيّة، فكانت لهما محطات في نابلس وجنين وغيرهما وما صاحبهما من مفردات المعاناة بسبب الممارسات الصهيونيّة الساديّة.

تقوم الرواية على آليّة الاسترجاع واستدعاء التفاصيل مع براعة في التصوير تمكّنت من خلالها **زينب السعود** من إشراك القارئ ليس في تمثّل الواقع فقط بل في نقل الانطباعات ومشاعر متداخلة ومتباينة. واستطاعت بذلك أن تختزل كل مفردات الواقع الفلسطينيّ مستحضرة معها كثيرًا من الرموز الإبداعية، وبدأت أوّل فصول روايتها بحزمة من الأسئلة الشائكة كي تقيّد بها القارئ وتوقظ وعيه.

إنّها رواية سامقة ومتميّزة بحقّ، وتستحقّ الثناء والقراءة.

د. صلاح جرار/ وزير الثقافة الأردنيّ الأسبق

telegram @yasmeenbook

مكتبة ياسمين

ISBN 978-9957-39-552-0

الأهلية

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2024
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962

رواية

زينب السعود

نطفة في قلب عسّان كنفاني

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahia@nets.jo
الفرع الأول (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف: 4638688 6 00962، فاكس: 4657445 6 00962
ص.ب: 7855، عمّان 11118، الأردن
AlAhliaBookstore alahlia_bookstore
00962775544710 alahliaBookstore@gmail.com
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

نطفة في قلب غسان كنفاني / رواية عربيّة
زينب السعود / الأردن

الطبعة الأولى، 2024
حقوق الطبع محفوظة
تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف 95297109 7 00962
لوحة الغلاف الأمامي: **رائد قطناني** / الأردن

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريا خطاب**، عمّان، هاتف 95349156 7 00962

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9957 - 39 - 552 - 0

مكتبة ياسمين
telegram @yasmeenbook

في هذه الحكاية لا تبحث عن شيء منطقي،
لا تحاول أن تكتشف الحلقات المفرغة،
هذه ليست كل القصة...
هناك جزء مفقود من القلب
عالق في حاجز طيّار.

«لقد كانت ثمة كلمة واحدة

وسقط الأمر كله على كتفي،

وأحسست أنني انطلقت من نافذة...

كانت موصدة»

غسان كنفاني

الحرية.....

يا لها من سعادة..

لو عشناها أكثر مما اقترفنا خطيئة الكتابة عنها.

زينب السعود

إذا كان لا بد من إهداء..

فليكن لنا نحن الأموات

أمّا هم...

فإنهم يبنون في الجنة غزة أخرى

بلا حصار أو زنّانة.

الفصل الأول

ذاكرة مبعثرة ودماء

كيف وصلت إلى هنا، وماذا أفعل؟ ومن الذي زج بي في هذا المكان، ولماذا؟

لماذا بعد 33 عامًا من تسللي إلى هذه الحياة رغم الجدران الثخينة، التي حاولت إجهاضي في ظهر أبي؛ لتمنع وصولي إلى مخبئي الهادئ، المجهز بما يضمن رتابة العيش، حيث لا منغصات تقتحم خلوتي، ولا متطفل يراقب أنفاسي، ولا يطالني الرفض أو الانتقاص؟ لماذا بعد انغراسي في رحم أمّي بعد السنين التي يحصونها عليّ، في كل ورقة رسمية يقيدون بها بياناتي وحياتي، لماذا أعادوني إلى حيث كنت نطفة؟ بعد كل هذه السنين ظلت ذاكرة القيد الذي أفلتُ منه عالقة في سجل ضحل لم يغلقوه بعد، كما هو سجل التصاقنا بهذا التراب الذي لم يلفظنا رغم كل ما فعلوه لمنع تحوله إلى طين ننغرس فيه إلى الأبد.

كل ما آمله الآن أن يستجيب السائل الأزرق في أنبوب القلم المرتجف بين أصابعي لتوسلاتي، بأن يتماسك أكثر؛ لينهي ما قررت أن

أبدأه الليلة؛ الليلة التي أنجدني الله فيها بقصاصة ورق، وقلم بدأ يتنفس ما فيه من حبر أنفاسه الأخيرة. لا أعرف جدوى للمقدمة التي أكتبها الآن، بعد الانتهاء من إفراغ ما في قلبي على وريقات بعضها متشرذم الأطراف، وبعضها يحمل ترويسة بلغة كرهتها دائمًا، وهي تقتحم أبصارنا، وتقتل وجودنا على هذه الأرض.

القلم الذي امتلكته الليلة ثمل باللون الأزرق، لكنه بدأ يفيق من نشوته، كلما ابتلعت كلماتي جزءًا من خمره، أتوسل إليه أن يعينني على انتشال بقية ما يعلق في جوفي، وأن يفرغ ما ركد من مياهي، تمامًا مثل الدّلو الذي كانت أمي تنتشل به ماء المطر من حفرة عميقة خلفتها قذيفة، تبحث عن أهداف غير موجودة إلا في رؤوس من أطلقوها، منذ ذلك اليوم الذي تحولت فيه حفرة الموت إلى بركة صغيرة لتخزين مياه الأمطار، بعد أن قام الناجون منها بصبّ الخرسانة الناعمة في قاعها، ورشقوا بها حوافها لمرات عدة؛ لتتحول إلى خزان صغير، تجتمع فيها قطرات المطر، سعيدة باحتجازها في مكان يمنعها من التبخر السريع، تحت تأثير أيّ دفء مفاجئ لأشعة الشمس. الدلو الذي كانت أمي تنتشل به مياه الخزان كانت تستخدمه لتنظيف المنزل، وغسيل الملابس، عندما يصبح وصول ماء الحنفية -الذي تتشاركه عائلات كثيرة- عسيرًا.

الماء والكهرباء -حيث عشت طفولتي- يتبع مزاج أولئك القابضين على رقابنا، أصبحت حياتي كلها في قبضتهم الآن، ولكنني ما زلت مؤمنة أن المعجزات ما زالت تحدث.

أول ما تسعفني به ذاكرتي التي تخلت عني -كما فعل هو- تلك الأصوات البعيدة، والجلبة التي اصطدمت بجدار ثخين، حال بين أذنيّ وبين تلمس مصدرها، ومنعها من العبور إلى عقل سدت عليه منافذ الفهم.

منذ استعادتي بعضًا من قدرتي على استخدام عقلي وتركيزي، بالقدر الذي يجعلني أفهم وأعي ما يحدث لي، بدأت أتحرر شيئًا فشيئًا من غيبوبة فصلتني تمامًا عمّا حولي، المكان يعج بروائح كثيرة، لا يمكن تمييز إحداها عن الخليط الممتزج برائحة العرق المنبعث من الأجساد، وزنخة الدماء المتناثرة على الأرضية، لا تجد يدًا تمسحها لانشغال جميع الأيدي بما لا يجعلها تعبأ بالدماء المتناثرة، وبقايا من رائحة كحول طبي علقت ببعض الأدوات، وشراشف أصبح كثير منها فراشًا أرضيًا لأجساد مزجاة، منها من يئن، ومنها من يبكي، ومنها من لا ينفك عن توجيه استغاثته للإله الرحيم. الأصوات تقترب أكثر من سمعي، تغزو عقلي المتعب، وتشعل فتائل في قلبي، ويرجف القلم بين أصابعي.

انهار العقل تحت وقع كلام الطبيب قبل هروبي إلى عالم لا وعي فيه، شاهدت فيه أشياء غير مفهومة، كأنه عالم من الأرواح المنسابة بخفة، كنت أرى كلَّ من في المكان وأسمع حديثهم، ينادون اسمي وأجيب: أنا هنا. لكنهم لا يسمعونني، عالم جميل دخلته لوقت قالوا إنه دقائق معدودة، هي التي غافلني فيها جسدي وغاب عن وعيه. رأيتني بين أغصان شجيرات تملأ ممرًا طويلًا، وأبي يجلس على مقعد

وثير، كتلك المقاعد التي يجلس عليها الأمراء والملوك في الحكايات والأساطير، وجهه أبهى من جميع الصور التي عرفته من خلالها، لم يكن متعبًا ولا مقهورًا ولا خائفًا. كأنني كنت جزءًا من فيلم خيالي، لم يثر فيّ مشاعر خوف أو ألم، كما فعل الخبر الذي ما زال ينتظر اكتمال وعيي، ليهجم على قلبي بأنصاله الحادة. ليتني لم أعد، ليتني بقيت هناك حيث أبي في ذلك الفردوس، لكنني أدركت أنه فردوس محرم عليّ في تلك اللحظة. ما زلت أعتقد أنني متّ في ذلك اليوم، ولكن الله شاء أن يعيدني إلى الحياة، وإلى العالم الجميل الذي لم أكن يوما حرة مرتاحة سعيدة كما كنت فيه، كان عالم الأرواح في العالم الآخر. نعم لقد متّ، أجزم أن روحي خرجت من جسدي إلى عالم الأرواح، لكنها عادت والتحمت بالجسد المنهك من جديد، ليكتمل قدري المرسوم.

ما إن سمعت صوت الممرضة يناديني: ندى، ندى صحصحي، تمنيت لو أنها لا تعرفني، ولا تعرف اسمي؛ حتى لا تصدمني بأنني في طريقي لاستعادة ما هرولت هاربة منه إلى عالم من اللاوعي الجميل.

اللاوعي الذي بدأ يتسرب ويتضح، معيدًا ذاكرة ما قبل الإغماء، يحمل شعورًا باردًا، ينخر عميقًا في روحي، كخيط دم ثخين ينساب بهدوء من أعلى الجسد حتى منتهاه، لا يصاحبه ألم، ولكنه نزف من الوريد، كلما تابع سيره الهادئ، تراخى الجسد أكثر وتهاوت بعض قوته.

قاومت عقلي كي لا أتذكر ما سمعت، ولكن نظرة واحدة بعينيّ المفتوحتين نصف فتحة تكفلت بأن أستعيد ألمًا عانيته، وبقيت أعانيه

فيما بعد، منذ ذلك التاريخ الذي قلب حياتي، وحياة ما يقارب مليوني شخص يعيشون في هذه البقعة المكلومة من العالم.

ضربت سارة على وجهي بخفة وهي تكرر مناداة اسمي، ثم وضعت يدها تحت رأسي وطلبت أن أرفعه ببطء حتى أستعيد وعيي بالكامل، استجبت لطلبها باستسلام وبطء حتى استويت جالسة على سرير معدني، تتلوث حوافه ببقايا دماء شخص ما، سبقني في الرقود عليه، ولا أعلم هل غادره حيًّا، أو ملفوفًا بقماش أبيض؟

عادت ذاكرتي تمامًا وأنا أشاهد الطبيب يتوجه نحونا بوجهه المتعب، وعينيه اللتين استدارت في أسفلهما دوائر قلة النوم السوداء. وقبل أن أتفوه بأيّ كلمة بادرني القول وهو يحاول جاهدًا انتزاع ابتسامة باهتة من بين عضلات وجهه الخائرة:

- الحمد لله على السلامة. هبوط طارئ في سكر الدم والضغط، ولكن أمورك تمام.

تابع وهو يقيس النبض، ويضع جهاز الضغط حول ذراعي.

- (ست ندى)، عهدناك قوية وشجاعة منذ وصولك مع بعثة الأونروا إلى غزة، تماسكي أرجوك فأنت مؤمنة، وعليك أن تحافظي على شجاعتك، بالنسبة إلى الطفلة التي كانت بصحبتك، نور...

لم أتمالك نفسي، ولم أستطع كتم شهقة شقت طريقها بين كلمات الطبيب بعد سماعي لاسمها، وبدأت دموعي تنهمر، وأنفاسي تعلو

وتهبط بحرقة، لم تنجح محاولات الطبيب في إخمادها أو التخفيف منها.

خرج صوتي من بين نشيجي يتساءل، مختصرًا آلام الإنسانية التي بدأت مبكرًا منذ بدء الخليقة، عندما لم يتسع الكوكب لوجود أول أخوين على هذه الأرض، فقتل أحدهما الآخر، لتبدأ بعد ذلك سيرة الظلم والقهر.

- هل ستقطع رجل (نور) أيّها الدكتور أدهم؟

هل حقًّا قلت ذلك؟ أو أنني أتوهم؟ بالله قل لي إنني أحلم.

صمته وابتلاعه المتكرر لريقه، والتفاته المتعمد إلى السيدة التي تئن على السرير المقابل هاربًا من أسئلتي، كلها جعلت الحقيقة تقف أمامي عارية تمامًا.

كررت السؤال، فاضطر إلى الاستدارة نحوي، وقال بصوت يتكلف الهدوء:

- لم نبتّ في الأمر، سنراقب أنسجة الساق، إذا كانت ما زالت حية فهناك أمل ألّا نضطر إلى البتر، سنعمل جهدنا.

وأكمل بصوت رصين:

- أنت متعلمة وتعملين في المجال العام، وتعرفين أننا لا نلجأ إلى الخيار الأسوأ إلا إذا فقدنا الأمل تمامًا. قدم (نور) تعرضت لتهتك

كبير، الشظايا التي تناثرت من قصف محيط المستشفى أمس أحدثت إصابات مشابهة لكثير من الجرحى، في كل الحالات قدمها لن... لن تكون صالحة للمشي، لكن إذا وجدنا أن البتر ضرورة لإنقاذ حياتها فسنقوم بذلك، تفهمين ما أقصد.

ساعتان مرّتا على كلام الطبيب، استعدت فيهما وعيي بالكامل وليته ظل غائبًا، الحقيقة منذ الآدمية الأولى امتزجت بمرارة ما تزيد وتنقص، وكل حقيقة علينا أن نتجرعها دائمًا كالدواء -مهما كان طعمه حلوًا- يبقى لاذعًا ومنفرًا.

بدأت أستجمع شيئًا من قواي بعد كوب الشاي الذي جلبته سارة، وتجرعتُه مجبرة، أعرف أنه غنيمة ثمينة أن تجد مشروبًا دافئًا، في مكان مثل مستشفى الشفاء في ظل هذه الظروف، حيث تتوزع الأسرّة المزدحمة بالأجساد المصابة، بمختلف أنواع الإصابات، كأنه معرض للوحات من الألم والأنين، والأيدي المحروقة والرؤوس النازفة، والأطراف المبتورة والشهقات الأخيرة التي تشارف على توديع الحياة بعد ليلة أمس الدامية، التي صبّ فيها الاحتلال نيرانه على حي الرمال في غزة، ليتحول كومة هامدة من الحطام، وكومة أجساد عالقة تحت الأنقاض، تنتظر من يسمع أنينها الخافت، قبل أن يضيق عليها النفس، ويسد التراب أفواهها، وكومة أخرى من الأرواح التي تساقطت أوراقها في السماء، فكان عليها أن تفارق أجسادها بخفة وعجلة إلى موئلها الأبدي غير عابئة بكل هذا الحطام، الذي فقد قدرته على حبسها أو عوق حريتها. عائلة نور من تلك الأرواح،

جارتي في البناية المجاورة، خديجة وزوجها عاصم وولداهما، بقيت طفلتهما نور، التي كانت تكبر هاشمًا بعام، شاهدة على أنهم كانوا أحياء ذات يوم. هل أحزن على موت خديجة وعائلتها، أو على طفلتها التي انتهكت القذائف طفولتها، وأصبحت ساقها الصغيرة مهددة أن تسبقها إلى الجنة؟ قالت هبة الشاعرة التي لم تمهلها مدافع (الميركافا) لإنهاء قصيدتها الأخيرة، قالت إن غزة أخرى تبنى في الجنة، لا يستطيع أحد حصارها، وليس للقهر سلطة على أهلها، تلك الجنة تتسع لخديجة وعائلتها، وللأطراف المبتورة.

أحاول العودة بذاكرتي قليلًا قليلًا، كأنني أعيد شريطًا سينمائيًّا إلى الخلف، الشريط يعود بي رويدًا رويدًا حيث البنايات المتهاوية تعود وترتفع مرة أخرى، الأشجار المتفحمة تورق من جديد، وينتعش اللون الأخضر، ويختال فوق أغصان الأشجار، الشارع الواسع في الحي الأكثر فخامة في غزة يعود لتتصل أجزاؤه بجمال ونظافة وتنسيق، فتختفي الحفر التي ملأته فجأة بفعل القذائف، كل شيء يعود في مخيلتي إلى ما كان عليه، يعود جميلًا بهيًّا أنيقًا، أكاد أسمع أصوات الأطفال يتصارخون على أراجيح الحديقة القابعة في منتصف الحي، كانت متنفسًا هادئًا لهواة المشي وركوب الدراجات بممراتها المرصوفة، وملعبًا لأطفال الحي في وقت المساء، وقبل غروب الشمس في معظم الأيام، تمتلئ بصوت فرح لا يتقنه إلا الصغار.

صوت (نور) يمتلئ بالفرح كبقية قريناتها عندما تحين ساعة ذهاب شقيقيها إلى الحديقة لتتشبث بهما، هذه الساعة تعني غالبًا أن

الواحد منهم قد أنهى فروضه الدراسية واستحق جائزة الترفيه عن نفسه باللعب، بعضهم كان يحضر جهاز التابلت الخاص به فيجلس على العشب منشغلًا بألعابه الإلكترونية، كثيرًا ما قلت لخديجة إن اللعب بالأجهزة مخالف لمبدأ الترفيه الطبيعي الذي تعنيه الحديقة، كانت تضحك قائلة إنها لن تدخل مع ولديها في معركة، (الأجهزة أصبحت منا وفينا يا ندى) هكذا كانت ترى الأمر، لكنها كانت لا ترسل نور برفقتهما إذا أصرّا على اصطحاب أجهزتهما.

- صحيح أن الدنيا أمان، ولكنني أخشى أن تخرج من الحديقة دون أن يشعرا بها.

هذا الأمان تلاشى تمامًا مع صوت الانفجار الذي حدث فجأة، وجعل أركان المنزل تهتز، والسقف يتساقط قطعًا، بدأت صغيرة وما لبثت أن كبرت واتسعت، حتى تحول المبنى -الذي هرب معظم سكانه- إلى أسقف متهاوية، فهل كان هذا دائمًا هو معنى السقوط المدوي؟

تناثرت أجهزة الأطفال واحترقت الأشجار، وتساقط اللون الأخضر من عرش خيلائه، وتحول جزء من الشارع إلى صورة قاتمة من الدخان الأسود والأتربة، وكثبان الركام التي بدا كأن الأرض تقيأتها فجأة.

صوت سارة الناعم انتشلني من فوضى الصور التي تداخلت في مخيلتي، عرفتها من المرات التي كانت تأتي فيها مع فريق الصحة

المدرسية للكشف على طلاب الوكالة، هكذا كنا نختصر تسمية من يتعلمون في المدارس التابعة لوكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين (الأونروا).

- أيتها الأستاذة ندى، هل ستبقين في المستشفى هذه الليلة؟ هل أطلب من أخي خلدون أن يأتي لاصطحابك إلى منزلك؟ يقولون: إن الجزء الشرقي من حي الرمال لم يصب بضرر بالغ، ربما تتمكنين من انتشال بعض الأشياء المهمة.

ذكرُها لاسم خلدون -زميلنا في العمل، الشاب الذي يعمل سائقًا في مقر الوكالة، المثقف المولع بارتياد الأمسيات الأدبية، آخرها أمسية شعرية في مركز الأقصى الثقافي التي أصر على اصطحابنا إليها- جعلني أتذكر ذلك الذي غادر وأفلت يدي المتشبثة به بقوة، أصابعي التي تكاد تتلاشى لصغر حجمها أمام حجم قبضته القوية، كلما أمسك بيدي كطفلة لنعبر الشارع الأمامي المزدحم، المفضي إلى دوار المنارة في رام الله، حيث يدق مكتب الأونروا أوتاده في الجهة الجنوبية شاهدًا يذكرنا كل يوم بغربتنا فوق هذه الأرض، أرضنا التي لا نملك فيها سوى فتات يبقينا به الاحتلال في كماشته الأمنية ليضمن وجوده وأمنه، غارسًا مخالبه في خاصرة أهلكتها أصوات المستنكرين والشاجبين والمتاجرين.

يومها ضحكت ساخرة، وفي كل مرة يحكم قبضة يده على كفي، ويسحبني إلى جانبه خوفًا من ازدحام السيارات، أحول الأمر إلى

دعابة بسبب خوفه الطفولي من زحمة الدوار والشارع، وغيرته الرجولية من ضربات أكتاف المارة المسرعة، غير آبهة بمن يعوق دربها في غمرة سعيها للنجاة من زحمة الطريق. يرقص قلبي منتشيًا عندما يحكم غسان قبضته على يدي، لكنه يعود ليتجرع الحسرة، بعد أن أفلتها في أحلك الظروف، قلبي الآن يبحث عن كتف غسان ولا يجده.

قلت وأنا أرسل بصري في صالة الطوارئ التي تعج بمن فيها:

- هل قرأت رواية (عائد إلى حيفا)، يا سارة؟

لم تخف دهشتها من السؤال الذي بدا غريبًا في هذا الموقف، ولكنها أجابت مبتسمة:

- قرأتها وأنا في المرحلة الثانوية.

- ذكرك لاسم خلدون ذكرني بغسان، خلدون الطفل الذي تربى في كنف العائلة التي سرقت منزل والديه، فظن أنها الأحق به ممن أنجباه وتجرعا الغصص لرؤيته واستعادته.

ابتسمت ابتسامة لا تخفي إرهاقها:

- غسان كنفاني!

- بل غساني أنا.

قلتها وأنا أتنهد، وأبتلع ما استطعت اجتراره من ريقي.

لم تلتقط المعنى الذي تحمله عبارتي، وفي الواقع أراحني صمتها من عناء الشرح والأسئلة، وأجبتها عن سؤالها الذي ما زال ينتظر:

- لن أغادر إلا ونور معي.

- الدكتور أدهم طلب إعطاءها جرعة مخففة من المورفين، ستجعلها تنام ساعتين على الأقل إلى حين الانتهاء من فحص قدمها، خلدون يقول إن الوضع سيئ، وهذه الغارة لن تكون الوحيدة، عليك أن تحضري أغراضك الضرورية وملابس للطفلة.

سألتها مقاطعة:

- أين خلدون؟

- في الغالب هو في سيارة الإسعاف التي وصلت قبل قليل، كلمني قبل ساعة، قال إنه هو ومجموعة من المتطوعين يساعدون كوادر الدفاع المدني في إنقاذ الأحياء، وإخراج جثث الشهداء من تحت الأنقاض.

عادت إلى مخيلتي صور وحكايات بدأت تنهال عليّ، وأنا أهز رأسي لسارة التي غادرت مسرعة لتلبية نداء سيارة إسعاف جديدة.

الغارة التي هزت حي الرمال لم تكن الأولى، فقد سبقتها انفجارات ليلة أمس في المنطقة المتاخمة لغلاف غزة، الأخبار تحدثت عن ضرب الأنفاق وملاحقة شباب المقاومة، لكن الجميع يعلم أن أي أمل بأن تكون الضربات محدودة كذبة نقولها لأنفسنا؛ كي نبث

شيئًا من الطمأنينة المغشوشة، ولا شيء أسوأ من أمان زائف يأخذك إلى سعادة وهمية، لا تلبث أن تتحول إلى صورة من دخان، يبدأ بالانسحاب ليتناثر في الأعلى، ويلتحق بذرات الفراغ.

صورة الحياة التي كنت فيها بقرب غسان -داخل إطار صنعناه معًا منذ لحظات لقائنا الأول، وبعد ذلك من حياتنا التي تشابكت بصورة غريبة- ليست كأي حياة لزوجين، ولا كأي رابط بين حبيبين، أو حتى مختلفين. تحولت طيوف ذكريات تنهش صدري كل يوم، منذ أن غادر قبل أيام إلى رام الله مع دفعة موظفي الوكالة الذين تم إجلاؤهم، ربما سيطير إلى كندا، التي كان يسميها الأرض التي ستتسع لأحلامه. أرسل كلمات مقتضبة عن فرصة ما زالت متاحة أمامي للحاق به، كم هو بائس حديث الفرص بين قلبين، لم يكن وجودهما معًا إلا الفرصة الوحيدة للآخر لكي ينجو ويتخلص من آلام نفسه وجراح فؤاده. الإطار الذي بالغت أنا شخصيًّا في الحفاظ على صلابته لم يكن السبب فيما آلت إليه علاقتنا، أدركت بعد رحيله أن الصورة كانت مشروخة، ولكنني لم أنتبه إلى مقدار اختلافنا في كل شيء إلا بعد أن انحدر الشرخ إلى أعماقي، ليتحول إلى انكسار، وصدمات تلو أخرى لعقلي الذي أحبه -وبطريقة ما- حبًّا لا عقل فيه.

وجود (هاشم) في حياتنا بعد فاجعتنا بجنين لم يكن دافعًا لترميم التصدعات التي حفرت في علاقتنا، بل ذريعة لهروبه، هكذا أقنعتني أفكاري التي استفردت بي، وجعلت تنهشني مثقلة صدري بأسوئها وأكثرها ألمًا، أنه لم يكن يحبني بالقدر الذي يدفعه للبقاء.

شاهدت وجه نور الجميل بعينيها العسليتين وشعرها الكستنائي المنسدل أسفل أذنيها عندما كانت تأتي بصحبة أمّها خديجة، هذا الوجه جزء من لوحة الوجوه الجميلة التي رأيتها في مدارس غزة، هل يستحق هؤلاء التشبث بالبقاء الذي أغضب غسان؟ لم أثق بتحليله للأحداث، وأخذت كلامه عن تدهور الوضع في الأيام القادمة باستهتار تحول إلى رفض، وعزوته إلى رغبته بالمغادرة بأي عذر ودون عذر.

لم يكن السبب الوحيد لحالة العصيان التي انتابتني اكتشافي المتأخر أن غسان الذي أحببته وتزوجته منذ سنوات لم يكن حقيقيًّا تمامًا، أعلم منذ البداية تطلعاته الجامحة وأفكاره المفرطة في البحث عن الذات، خارج أسوار كلّ ما يمتّ لجذوره بصلة، قبل أن ألتقيه بزمن طويل يوم حصل على الجنسية الكندية، كانت كل تركته من أمه الكندية، التي لا أعرف عنها الكثير، المرات التي أجابني عن أسئلتي حولها بعصبية واقتضاب جعلتني أتحاشى مطالبته بتفاصيل زائدة عنها.

طموحه أن يغادر هذه الأرض المتعبة مسلوبة الحرية إلى بلاد يحقق أحلامه فيها، وينطلق حرًّا في حياة لا يقيده فيها حاجز أو إضراب أو نفير عام، هل كان غسان خائنًا لقضيتنا؟ تساءلت عشرات المرات بل ربما المئات، وبقي هذا السؤال يصرخ داخلي هل كان خائنًا منذ البداية؟

عندما غادر قال إنني أنانية، وإنه مجنون لأنه سمح لقلبه أن يقوده للارتباط بي. هكذا وبكل رتابة باردة في نهايات القصص والحكايات

الأسطورية يخرج نصل السكين حادًا، من ثغرة لم نكن نعلم بوجودها بيننا وبين من نحب، لتعمل فينا الجراح ولتحز الجلد وتتوغل في عمق الشرايين.

فكرة الخيانة لم أستطع التسليم بها، أو ربما لم أقو على تقبلها، أتذكر بين الحين والآخر الشعر الذي كان يردده لدرويش في جلساتنا المسائية في شرفة منزلنا الصغير في رام الله:

أنا العاشق السيئ الحظ

لا أستطيع الذهاب إليك

ولا أستطيع الرجوع إليّ.

فأضحك حينها، وأتعمد إغاظته في شاعره الأثير.

- ليس فقط عاشقًا سيئ الحظ، بل هو أيضًا شاعر سيئ الشعر.

فينتفض كمن لدغته عقرب مدافعًا بجدية كبيرة عن شاعرية محمود.

- إلا محمودًا يا ندى.

فيرتفع صوت ضحكتي أكثر وأكثر، وأقول ممعنة في استفزازه؛ لأرى عينيه اللوزيتين تتسعان على آخرهما، وهو يستنكر عليّ الغمز بمحبوبه.

- الحمد لله أنه متوفى، وإلا لظننته ضَرّتي.

يقهقه هذه المرة متخليًّا عن غضبه المفتعل، ويضرب بلطف على كتفي، وهو يقول:

- ضرتك لن تكون رجلًا أبدًا.

- ولا امرأة. أجيبه على الفور، فيبتسم ابتسامة واسعة وقد لمعت عيناه ببريق جميل يزيد وجهه وسامة، ويقول مؤكدًا:

- ولا امرأة.

أسند ظهري إلى المقعد المعدني الذي شعرت ببرودته تحفر في أوصالي، وأضم نفسي بذراعي ألتمس الدفء من ضغطهما على جسدي، وأراقب حركة الأرجل المتسارعة على أرضية المستشفى، الذي تحولت أقسامه إلى حالة الطوارئ، النقالات تذهب وتأتي مسرعة، لتفرغ حمولتها من الأجساد النازفة، والدماء تمتزج ببعضها تاركة خطوطًا غير منتظمة على الأرضية.

دار في ذهني كلام منصور الشاب السويدي من أصل فلسطيني، عندما قابلناه في مكتب الوكالة في بداية قدومنا إلى غزة.

قال: ستعتادان منظر الدماء في غزة، فالهدوء هنا مؤقت، بين فترة وفترة يفتعل الكيان أي سبب لشن غاراته على أحيائها، أحيانًا بحجة وجود من يسمّيهم مخربين، وأخرى سعيًا وراء اغتيال مطلوبين. في كلّ الأحوال عليكما أن تكونا قويين جدًّا؛ لتتمكنا من العمل والعيش

في غزة رغم وداعتها الظاهرة، لكنّ جرحًا في خاصرتها ينزف كل حين، لا أحد يمكنه تخمين من أي مكان سيرشح الدم في كل مرة.

أجبته حينها مبتسمة: أنت تتحدث مع امرأة عبرت الحاجز مشيًا على الأقدام.

لم يفهم حينها ماذا أقصد، ولكنه عرف فيما بعد قصتي مع الحاجز عندما استضافنا في منزله قبل سفر زوجته (روزا) إلى ستوكهولم لاستكمال علاجها.

قلت لغسان ونحن في طريقنا إلى منزلنا تلك الليلة: السويديون يأتون إلى غزة بروح طيبة إلا نحن.

لم يفته المعنى في دعابتي، فأجابني بشعر لدرويش:

يقول لها: أيّ زهر تحبينه؟

فتقول: القرنفل... أسود.

يقول: إلى أين تمضين بي، والقرنفل أسود.

ضحكتُ وقلت: مع أنه لا علاقة تربط قرنفلك بما قلته، ولكنها طريقة جيدة لتغيير الموضوع.

تنهد مبتسمًا: كل العلاقة، القرنفل الأسود في بلادنا يغريهم، يأتون ليختبروا كذبة اسمها الضمير الإنساني، بلادنا كانت باقة ورد جوري مخمليّ الملمس، أنيقة مترفعة بكبرياء، كل نهضة وعلم وتحضّر

بدأ من هنا، حيفا ويافا وعكا وطولكرم، لكنهم داسوا خدود الورد الرقيق. القرنفل الأسود هو استعاضة من يضطر إلى تغيير جلده بآخر أقسى وأصلب، ليتحمل أكثر ويتحمل أكثر وأكثر، ألم تسألي نفسك يومًا لماذا الجميع يحبون القرنفل، ولكنهم إذا أرادوا إهداء باقة لأحد ما تجنبوه، لماذا يتجنب المرء شيئًا يحبه، ويمنعه أن يكون واجهة فرحه أو أفراح من يحبهم؟ ببساطة لأنه يخشى على ذلك الرمز أن يمتهن في لحظات السعادة الخاطفة! أرأيت تشاؤمًا أكثر من هذا، أو بؤسًا أدميًّا أعمق وأدقّ؟

تمنيت حينها لو يواصل الحديث، للحظة خيل إليّ أنني أستمع إلى «غسان كنفاني».

❋ ❋

ذاكرة البدايات: الحاجز

يلتهم اللون الوردي بصري، أمام هذا الجزء من خزانة الملابس الممتلئ بقطع ثياب صغيرة، مرتبة بعناية كأن آلة قامت بتحويل الرف المنغرس في وسط الخزانة إلى لوحة زهرية تدل على أن العينات الصغيرة تعود لمولودة في أشهرها الأولى.

المنافسة بين حليمة زوجة خالي وخالته فاطمة -زوجة أبيه التي يناديها الجميع أم غسان- كانت على أوجها؛ فكلتا الجدتين تنتظران من تعتبرانها حفيدتها الأولى، هذه المنافسة جعلت الرف الكبير مخزنًا صغيرًا، تتكدس أطقم الملابس الداخلية القطنية فيه إلى جانب الكوفليات البيضاء المرقطة باللون الوردي، والبيجامات المتناهية في الصغر. كانت حليمة زوجة خالي وأمي التي رعتني تصرّ في مكالماتها أن جودة الثياب التي أرسلتها لحفيدتها المنتظرة أفضل ما يمكن الحصول عليه، بينما تصر الجدة الأخرى أن الكوفلية التي أرسلتها حليمة دقة قديمة، وأن التربية الحديثة استبعدتها من

تجهيزات المواليد لكونها تقيد حرية الطفل. الجدال الذي دار بينهما مرارًا عبر المكالمات العائلية التي كان غسان يبادر إليها حول الكوفلية اتخذ منحى حضاريًّا بين حالتين اجتماعيتين، حليمة ابنة مخيم قلنديا التي ظلت وفية لزوج لم ترزق منه بأطفال، ولمع معدنها الأصيل بعد الحادث الذي أودى بإحدى عينيه، وابنة القدس التي دخلت إلى حياة غسان زوجة لأبيه، وهو في سن صغيرة بعد أربعة أعوام من انفصال والده عن أمه وعودتها إلى بلادها. أصرت حليمة على أن الكوفلية جزء متوارث من تجهيزات الولادة، ودافعت وسط سخرية المرأة الأخرى عن رأيها بقوة، واستعانت بقصص كل النساء اللاتي تعرفهن في تاريخ حياتها.

أخبرني غسان أن جد فاطمة كان من ملاك الأراضي في حي القطمون المقدسي، هاجر عن حيه وأملاكه مع من تم تهجيرهم من سكان أشهر أحياء القدس في 1948م، وبقيت بيوتهم المميزة بمعمارها الأصيل نهبًا للسكان الجدد، لا أنسى الحرقة التي غلفت صوت غسان وهو يتحدث عن أجمل أحياء القدس وأقدمها، التي استولى عليها الغزاة واحتفظوا بأسمائها العربية (عين كارم) و(الطالبية) و(البقعة) و(القطمون). دافعت أمي حليمة عن الكوفلية كأنها تدافع عن أرض مسروقة، يأبى مغتصبوها الاعتراف بوجودها في محاولة لإقناع الجدة الثانية أن عظام الطفل لا تقوى وتشتد إلا (بكوفلته). المدهش أن غسان كان من أنصار الكوفلية.

ضحكت كثيرًا عندما قال: صيدلية خالتي المنزلية لم تكن تعترف إلا بالبابونج، الذي تأتيها حصتها منه من جارتنا أم ربحي، جمع العشبة في بداية الربيع مناسبة قومية تنتظرها كل عام، والآن هي لا تعترف بالكوفلية لأنها دقة قديمة.

في الواقع كنت أميل إلى رأي المرأة القطمونية، ولكنني لا أستطيع أن أعلن أمام أمي حليمة مخالفتي لمبادئها. إظهار التسليم لأحكامها الاجتماعية كان جزءًا من شعور الوفاء الذي أكنه لها.

أخذ خالي على عاتقه رعاية شقيقته وابنتها، قال إنه لن يسمح مرة أخرى بابتعادنا عنه، بعد الفراق الذي طالنا بإذعان والدتي لرغبة عمي، من دبت فيه الحمية لستر لحم أخيه، كنت جزءًا من ذلك اللحم، عشت في كنف عمي سبع سنوات، كانت أريحا بالنسبة إليّ المكان الذي ولد فيه أبي؛ لذلك كنت أرسمه في مخيلتي قطعة نادرة من العنفوان والبطولة، سبع سنوات أيقنت بعدها أن الأمكنة تكتسب جزءًا من قداستها وجمالها بفعل من نقابلهم فيها. لم يقسُ عمي عليّ، ولكنه لم يستطع أن يجعلني أحبه كما كان متوقعًا من نظرية اللحم التي جعلت أمي توافق مكرهة على الزواج، لتدخل في حلبة الصراع مع زوجته وأبنائه، رضيت أمي بهامش الحياة التي كانت تنتظرها في بيت الزوج الجديد، لكن المرض لم يمهلها. الفترة التي أمضيناها في كنف خالي في رام الله بعد طلاقها من عمي كانت المرحلة التي يسمونها النقلة النوعية، فشلت في اجتياز امتحان الثانوية في أريحا بعد مرض

والدتي ودخولنا تحت رعاية أخيها الوحيد، قررت أن أبدأ طريقي في الحياة، الطريق الذي لن يمهده أحد سواي. بعد حصولي على شهادة الثانوية في المحاولة الثانية كانت وصية أمي لأخيها أن يساعد ابنتها لإكمال دراستها الجامعية.

وفى خالي بالوعد، وكان العام الذي توفيت فيه أمي متأثرة بانسداد الشرايين -بعد أن غزت الأورام غدتها الليمفاوية- هو العام نفسه الذي أتممت فيه دراستي للغة الإنجليزية.

أغلقت الخزانة متنهدة، وأنا أضع يدي على بطني الذي اكتملت استدارته، وأصبح مثل بطيخة جاوزت حد النضج. الشهر التاسع لحملي الأول بدأ منذ أسبوع كما قالت طبيبة المركز الصحي في الباذان. القرية الصغيرة التي تكاد تخلو من الخدمات الأساسية، مع ما يكتنفها من جمال طبيعتها، كأنها لوحة مكثفة للون الأخضر، الذي تتخلله أودية لم يتخل كثير منها عن مائه المنساب بهدوء عجيب.

لا يريد المريض تخيل الألم وهو في طريقه إلى طبيب الأسنان لخلع ضرسه، يظل يؤجله إلى وقته مواسيًا نفسه بحالة فقدان الشعور الذي تمنحه إبرة التخدير، هذا ما كنت أفعله طوال الأشهر الماضية، أستسلم لحالة خدر على عكس غسان المنفعل بتفاصيل الولادة، الغاضب من عنادي وبرودة أعصابي الظاهرة، أحيانًا يمتزج الغضب لديه بسخرية يستطيع أن يجعلها لاذعة ومضحكة في آنٍ واحد معًا. كلما رآني شاردة الذهن افتعل عبارة تضحكني، أو أخرى تبكيني حسب مزاجه ونفسيتي. (أنت بحاجة إلى شراء حزام يا ندى، لعلك تحزمين أمرك،

أضحك وأنا أتساءل عن السبب والحجة التي يريد إقامتها عليّ فيجيب: توجسك الصامت كمن يبقى طوال الوقت يمسك بنطاله خشية أن (ينسحل)، ولكنه لا يعرف أن معاناته مع البنطال (الساحل) تتلخص في شراء حزام لا أكثر. ضحكت كثيرًا تلك اللحظة؛ ضحكت من قلبي لالتقاطته الغريبة وزجّها في حوارنا اليومي المعتاد. علاقته مع أحزمته الجلدية مرتبكة، فهو يكره إحاطتها بخصره، ولكنه يضطر بسبب ما تمليه قوانين الأناقة، القوانين الوحيدة التي لا يمقتها زوجي بل يعتبرها الشرعية الوحيدة لرجل وسيم مثله، (هل أنت مغرور) أصرّ على مناكفته كلما عرّج على ذكر موضوع الوسامة فيقول بثقة: لا، أنا نرجسي.

فأضحك بغباء، ولا يدور في مدارات تفكيري حينها أنه يعنيها تمامًا.

كانت حليمة أكثر خوفًا وتوترًا مني، توجه سؤالها إلى غسان في كل مكالمة: (شو) الترتيب؟ ويرد: (سيحلها الحلال لا بالمال ولا بالرجال). هكذا تعلم غسان إنهاء النقاشات مع امرأة تعتبر نفسها مسؤولة عني، بعد أن وضع يده على مفتاح شخصيتها سريعًا. تؤمن حليمة بالأمثال والحكم التي يلقيها الأشخاص في المواقف الصعبة، كأنهم يستنجدون بالتاريخ والموروث للتصديق على صحة نظرياتهم واختياراتهم وأخطائهم أيضًا. وإذا أرادت تلخيص رأيها في أيّ موضوع، تضع له قفلة مما تحفظه من أمثال (اجر جري الوحوش غير رزقك ما بتحوش). كان قولًا صالحًا لإثبات كثير من نظريات الحياة

لديها، ولأنصفها من فلسفتي وتلاطم أفكاري قررت أن كل ما تسقطه هذه المرأة على الحياة نابع من جزئها الإنساني الخاص، الذي ربما لا يشاركها فيه أحد.

ذكرياتي في ذلك اليوم اتصلت بمشاعري التي رققها اقتراب موعد الولادة، تذكرت أمي الحقيقية (فردوس العايد) التي لم تفرح بزواجها من أبي ببذرة من ذلك الزواج، سارعت يد الجبناء إلى الزوج فألقته في السجن، لتكمل مسيرة حياتها تتوكأ على قناعات وأفكار جعلتها تهادن الرياح، ولا تعترض طريق الموج حين يثور. هذه الخصلة التي ورثتها من أمي اجتمعت مع تأثير حليمة في شخصيتي، جزء مني يميل للتوكل وعدم محاولة تفسير كل شيء، يسخر غسان من بعض القفلات التي تعقب نقاشاتنا ولكنني كنت أستملح الأمر، وأتعمده في كثير من الأحيان، فأرسل ما أحفظه في عقلي بمناسبة وغير مناسبة. (سمرة ونغشة ولا بيضة ودفشة) كان المثل الذي لا أمل تكراره، كلما استعدت حقيقة تفوقه في جمال الشكل.

البحث عن المخارج المثالية التي نظنها سبيل الخلاص من أي معضلة وهم تصنعه ذواتنا المنتفخة. ومع مرور الوقت بدأت أشعر أن زوجي من أولئك الموهومين، ولكنني كنت منتفخة جدًّا بحبه فلم أنتبه إلى شسوعة الاختلاف بيننا. كان لديه مخزون من الموروثات الفكرية أيضًا، الغريب أنها كانت من النوع الذي يميل فورًا نحو الانبطاح أرضًا. هل قلت الانبطاح؟ يا لها من كلمة لخصت سبب

التصادم، وفرقعة الانفجارات التي أودت بنظرة الحب الأولى، وحالة الشغف التي جاهدنا للإبقاء عليها.

منذ أن أخبرتني الطبيبة أنني معرضة لولادة مبكرة في أي لحظة، أصبحت لا أرى غسان إلا ساهمًا أو يجري اتصالات مع قريبه في نابلس، شارحًا له وضع زوجته الحرج، وأنه بحاجة لأن توجد قريبًا من المستشفى، راجيًا أن يجيبه ذلك القريب بعبارات أخرى غير عبارات الدعاء بالفرج.

أغلقت باب الغرفة، وتوجهت بخطوات متثاقلة إلى المطبخ لصنع كوب من الميرمية. كأيّ فلسطينية لدي إيمان غريب بأن الميرمية علاج سحري لأي وعكة، امتنعت عن شربها أو وضعها في الشاي طوال الأشهر الثمانية الماضية، أجمعت نسوة القرية -وقبلهن نسوة المدينة، ونساء الخريطة الفلسطينية بكاملها- أنها تسقط الحمل، كما تواتر إجماعهن أنها مفيدة لتسهيل الولادة بعد الدخول في الشهر الأخير.

استدرت وأنا أحمل الكوب الساخن، انتفضت وشهقت شهقة خفيفة، والسائل الأصفر الساخن يتراشق على يدي، قلت معاتبة:

- الله يسامحك، كم مرة قلت لك أنا نجمي خفيف، أصدر أي صوت عندما تدخل.

أجاب مبتسمًا:

- ألا يكفي صوت (رزع) الباب؟!

- كنت شاردة الذهن. أجبته مبتسمة أيضًا.

حمل الكوب من يدي وخرج إلى الصالة، تبعته وأنا أحاول جاهدة ألا أسأله هل هناك أمل أن تحدث معجزة؟ كي لا أدخل معه في جدال عن نظريته (زمن المعجزات انتهى). المرات الكثيرة التي تناقشنا فيها عن موضوع الولادة انتهت بتشبث كل منا برأيه. لا يؤمن بوجود معجزات إلا تلك التي كانت في عصور الرسل والأنبياء، ولولا أن القرآن ذكرها لكفر بها جميعًا.

يختم النقاش بهذه العبارة حتى أصبحت مع الوقت أمقتها؛ لأنني أدركت أنها كانت مجاملة لي ليس أكثر، أما أنا فالحياة بالنسبة إليّ قائمة على المعجزات، أليست المعجزة خارقة عن المألوف والعادة، منافية للمنطق والعقل؟ وماذا في حياتنا يسير وفق عادة الأمور، وما المنطق في كل ما نعيشه ونختبره في هذا العالم وفي هذه البقعة الصغيرة منه؟ يفهم غسان المعجزة أنها شيء كالسحر، أو عصا تهتز كما اهتزت عصا موسى، أو يد تمسح وجه المريض فيشفى مثل يد عيسى، أو حوت يبتلع إنسانًا ويخرج من بطنه حيًّا كما خرج يونس. أما أنا فأراها الآن تتمثل في حاجز يفصلني عن مستشفى الولادة في نابلس يبعد عشر دقائق، يحرسه -في غرفة مبنية على أعمدة خرسانية، يبلغ طولها ثلاثة أمتار- قناص يرشق ببندقيته كل من يقترب من أطراف الطريق الجبلية المؤدية إليه. يتندر البعض فيسمونه برج الذهب في إشارة إلى البرج العسكري، الذي بني في عهد الدولة الموحدية في إشبيلية جنوب إسبانيا للسيطرة على حركة المرور.

قبل انتفاضة 2008م كان الطريق الواصل بين نابلس وقرية الباذان متاحًا، كعلاقة القرى بمدنها ترتبط الباذان الواقعة شرق نابلس بمدينتها، جمال موقع القرية على واد سميت باسمه، ومساحاتها الزراعية المترامية حوله لم يمكناها من الحصول على خدمات إضافية. نقص الخدمة الصحية أكبر مشكلة يعاني منها أهالي القرية الجميلة، أصبحتُ من أصحاب المعاناة بعد قدومي إليها مع غسان منذ عامين برفقة منظمة كندية تعمل تحت مظلة برنامج الأمم المتحدة للعمل والشؤون الإنسانية، انتدبه المقر الرئيس للوكالة للعمل في الإشراف على المشروعات الصغيرة، وتقديم الورش والدورات التعليمية للمستفيدين من شباب المنطقة، خاصة فيما يتعلق بالطرائق الحديثة لاستصلاح الأراضي.

كنت من أصر على خوض التجربة، خاصة أنهم عرضوا عليّ العمل في مدرستين بنظام التناوب، مدرسة الباذان إحداهما، أقنعت غسان من موقعه رئيسًا للجنة المشاريع في المركز الرئيس في رام الله أن يقبل الترشيح. كان الحب في أوجه حينها، فانصاع لرغبتي على كره منه لتجربة مغامرة كهذه. ولأن قائمة طموحاته لم يكن من ضمنها السياحة في مكونات الوطن، أو العمل في أماكن لا تضيف له إلا المزيد من شعور الاستلاب الذي ظل يلازمه فيما بعد، لكن الحب لم يكن السبب الوحيد، فقد تم ترشيحه لكونه حاملًا للجنسية الكندية إرضاء للفريق القادم من هناك.

المركز الصحي في شمال القرية يعجز عن علاج كثير من الحالات، بسبب النقص المتكرر في الأدوية، حتى العيادة الخاصة الوحيدة تغلق

أبوابها ستة أيام في الأسبوع، لتفتح يومًا واحدًا فقط هو ما يسمح به وقت الطبيب الذي يزاول مهنته في عيادته بنابلس، الغرفة الصغيرة التي تسمى عيادة في القرية تقع بجوار منزل عائلة الطبيب الذي يعالج أبناء قريته ممن حالفهم الحظ لتتزامن نوباتهم القلبية المتكررة، أو اضطرابات الضغط والسكر في اليوم الذي يحضر فيه إلى القرية. التقينا الطبيب الشاب مرات قليلة خلال العامين الماضيين. إحداها كانت في منزل والده مختار القرية الذي دعانا إلى الغداء بعد وصولنا الباذان بأسابيع، إكرامًا لضيوف القرية الجدد لاسيما بعد أن عرف الجميع أننا في مهمة تابعة للوكالة. وكبقية قرى ومخيمات فلسطين تلاقي بعثات وكالة الغوث -وغيرها من المنظمات التطوعية والإنسانية- ترحيبًا إجباريًّا من الأهالي.

يدفع فلاحو القرى الفلسطينية ثمنًا كبيرًا من حسرة قلوبهم، وهم يرون أراضيهم تذبل أمام أعينهم لتعذر وجود المعدات والبذور، والأسمدة والمبيدات بشكل كبير طوال مواسم الزراعة، ومرارة الخيارات تزيد وطأة ذلك الثمن على نفوسهم. حدثنا المختار عن 15 ألف دونم من أراضي القرية المعروفة عبر التاريخ ببساتينها ووفرة الينابيع فيها، تقلص هذا الرقم منذ استهداف الأراضي الفلسطينية بالشراء من قبل وفود المستوطنين الذين جاؤوا يحلمون بالتملك، بعد أن كانوا قطعانًا متشرذمة في أوروبا. لم تسلم الأراضي الزراعية في القرى الفلسطينية من سعار الاحتلال في غرس أقدامه في هذه الأرض، وهتك كل جدران عذريتها، التي لم تعرف سوى فأس مزارعها، ولم

تتشرب إلا حبات عرقه. صوت المختار كان ينضح بالأسى وهو يتنهد ويطلق زفيرًا حادًّا ويقول:

– لقد ساوموني شخصيًّا على بيع جزء من أرضي الموروثة عن والدي.

تطوع ابنه الطبيب يومها لحمل عبء سردية بدا واضحًا أنها تثقل كاهل والده، الذي التمعت عيناه فجأة بحبات الندى.

قال خليل إن والده تعرض لمساومة كبيرة من مجموعة من السماسرة اليهود، الذين دخلوا القرية مع إحدى شركات الاستثمار البولندية الباحثة عن أرض تقيم عليها مصنعًا للكابلات الأرضية المستخدمة في تمديدات الشبكات الكهربائية. ما ظل يؤلم المختار (أبا خليل) بعد فشل الضغط عليه في تحقيق رغبتهم، أنه كان برفقة أولئك السماسرة مرشد، يعمل دليلًا لهم للبحث عن الأراضي المناسبة التي يدخلون بعدها في مساومات كريهة مع أصحابها، مستغلين فقر البعض وحاجته الماسة إلى المال. لم أعرف هل فهمت ما كان يلمح له الدكتور خليل حينها فهمًا صحيحًا؟ بعد أن عدنا من تلك الزيارة أكد غسان ما فهمته، المرشد الذي استعان به السماسرة كان سمسارًا عربيًّا، من أولئك الذين يمضون حياتهم يلهثون خلف المال فقط. كعادة غسان في اصطياد مثل هذه القصص قال هازئًا:

– كلٌّ يبحث عن مصلحته، ماذا على هؤلاء السماسرة العرب أن يفعلوا؟ هم تجار أراض في النهاية، هل يموت واحدهم من الجوع حتى يحظى بألقاب البطولة الوطنية؟

خرج اعتراضي صارخًا يومها:

- هذا السمسار حالة شاذة، ولا يمكنك أن تطلق تعميمًا على جميع تجار الأراضي الشرفاء الذين رفضوا التعاون مع الاحتلال. هل حقًّا تتساءل ماذا يفعل؟ وهل يموت من الجوع؟ غسان أنت لا تقصد أن تسوّغ لهم الخيانة، أليس كذلك؟

- ليست خيانة يا ندى. القاموس في رأسك مبرمج على كلمات الصحف والخطابات القومجية، تمامًا مثل الشعارات الماركسية التي يرددها أبي عن تعزيز نظرية القيمة، وتطبيق مبدأ (من كلٍّ حسب طاقته ولكلٍّ حسب حاجته).

قالها بحدة واضحة وبثقة جعلتني أنظر مليًّا في وجهه، وعشرات الأفكار والأسئلة تتدافع في رأسي.

- وماذا تكون الخيانة غير مساعدة العدو على استغلال حاجة الفلاحين، للضغط عليهم وتمليك أراضيهم لحفنة من لمامة الأمم؟ هل أنت حقًّا مع بيع الأراضي لليهود يا غسان؟

ضحك يومها ملطفًا جو الحوار الذي مسه سلك كهربائي عار فجأة، وقال:

- مشكلتي أنني تزوجت امرأة رأسها مخزن من الأفكار والشعارات والهتافات.

قرصته من ذراعه، وما زال أثر الحنق من كلامه واضحًا في صوتي:

- ومشكلتي أنني تزوجت غسان كنفاني، ولكنني أسمع دائمًا صوت غسان، ولا أسمع صوت كنفاني أبدًا.

ضحك حينها حتى لمعت عيناه، واكتفى بهز رأسه، ولم أعرف حجم البؤس الذي كان يلف تلك الضحكة، والجزع الذي خرج على هيئة التماع في عينيه إلا عندما اكتملت وضعية الانفجار فيما بعد.

نبهتني رائحة السيجارة التي أشعلها مما انثال عليّ من أفكار. قلت وأنا أرتشف رشفة طويلة من كوب الميرمية:

- عدنا إلى التدخين.

نفث دخان سيجارته مديرًا رأسه ناحية النافذة المفتوحة:

- هذه المرة فقط.

- ألم تقل إنك طلقته بالثلاث؟ ثم إن بيننا اتفاقًا، لا دخان في المنزل.

ابتسم ابتسامة ذابلة، وهو يمد يده التي تحمل السيجارة نحو النافذة:

- الدخان يخرج من النافذة، ولا يصل إليك.

رائحة التبغ بدأت تدخل أنفي، شعرت بالضيق ستشتعل الحساسية الآن، بدأت بفرك أرنبة أنفي مع ازدياد الرائحة. قمت من مقعدي مترنحة تحت ثقل جسمي، واتجهت إليه مباشرة وأخذت

السيجارة من يده وفركتها في المنفضة. وسكبت عليها الماء حتى تخمد الرائحة سريعًا.

لم يعترض وبقي يرتشف فنجانًا من القهوة ببطء. كنت أتحاشى أن أساله فيما يفكر هذه الأيام، شعور متشح بالندم يتلصص بين كلماته، كلما تناقشنا في أي شيء يخصنا.

بعد هنيهة من الصمت جاءني صوته:

- ندى..

انتظرت أن يكمل، ولكنه توقف بعد مناداة اسمي، وأخرج زفيرًا من صدره، وعاد لارتشاف قهوته. بقيت صامتة، أعرف أنه يرتب الكلام في رأسه، هذا دأبه الذي بت أعرفه تمامًا، كلما أراد أن يفجر فكرة ضاق بها رأسه، هو ليس من الأشخاص الذين يهرقون حديثهم المهم دون وعي، وهذه الخصلة من خصاله المحببة إليّ.

قال بعد أن أعاد الفنجان إلى الطاولة:

- فكرت كثيرًا في موضوع الولادة، لا يمكن أن نغامر بولادتك في المركز الصحي هنا، تعلمين أن وضعك حرج، أعني أنك ربما تحتاجين إلى رعاية خاصة، الطبيب قال إن لديك سيولة زائدة في الدم، ويخشى أن...

- أن أتعرض لنزيف حاد أثناء الولادة. أعرف ما قاله الطبيب. قلت محاولة تخفيف ما يشعر به من عبء.

تابع كلامه قائلًا:

- ربما علينا أن نذهب إلى نابلس في أسرع وقت، دخلت الآن شهرك ولا خيار لدينا إلا أن نسلك الطريق الالتفافية، اتصلت مع ابن عمتي (أبي وسيم)، قال: إنه يمكنك المجيء إلى نابلس، والمكوث بضيافتهم إلى حين موعد الولادة.

صوته -وهو يقول جملته الأخيرة- يشي بعدم اقتناعه التام بهذا الحلّ.

حدثني دائمًا عن صعوبة إرسالي إلى نابلس عند قريبه، منزله صغير ولديه أطفال صغار، ولن أرتاح في مكوثي عندهم. يعلم أنني أجد صعوبة في النوم، وينتابني الأرق إذا تغير مكان نومي.

قلت متفائلة:

- ربما تحدث معجزة ويفتح حاجز (العقبات)، ويكفينا الله تعب الطريق ووعورتها بين القرى، لا أتخيل أنني سأمر عبر عصيرة وجنسينيا وزواتا والناقورة ودير شرف وسبصطيا حتى أدخل نابلس.

ضحكت بمرارة وأنا أكمل: طريق التفافي عبر ستّ قرى، وساعتان من الزمن تلزمني لأدخل نابلس، بينما يفصلها عن الباذان ممر ترابي نجتازه في عشر دقائق.

هبّ واقفًا، وقد بدأ صوته يتهدج من الغضب:

- تتحدثين عن معجزة مرة أخرى؟ عقلي سيشل من التفكير، وأنت تفكرين في معجزة. قليلًا من الواقعية يا ندى، الحل الوحيد أمامنا أن تجهزي حقيبة صغيرة غدًا أو بعد غد، سوف نتوجه إلى نابلس عبر الطريق الداخلي، واسألي ربك ألا يخطر للجنود إقامة حاجز طيّارة في منتصف الطريق لسوء حظنا.

- الله سيدبرها.

- جهزي أغراضك الضرورية؛ فاليهود لن يفتحوا طريق العقبات، الأسبوع الماضي نجا أحد الشبان الذين كانوا بالقرب من طلعة الجبل بأعجوبة من رصاصة القناص، الطريق مغلق ولن يفتحه إنس ولا جن.

انفلتت كلماتي غاضبة رغم محاولتي الحثيثة للحفاظ على هدوء أعصابي، حتى لو كان بالتصنع الذي لا أجيده كثيرًا:

- أحدثك عن قوة الله وقدرته على تبديل الحال، وأنت تحدثني عن الإنس والجن، لماذا تريدني أن أتشاءم؟ تدفعني دفعًا للأفكار السلبية التي أحاول الهرب منها.

شعرت برعشة في جسدي الذي تهاوى فوق المقعد القريب، وبدأت محاولتي الفاشلة لمنع شفتيّ من الارتجاف، ولكن دمعة غدرت بي وأخذت تنحدر ببطء على جانب خدي الأيمن.

تهدّج صوتي وأنا أقول:

- أنت مصر على تكسير مجاديف الأمل فوق رأسي.

أراد أن يتكلم لكن صوت نشيجي الذي بدأ يرتفع جعله يصمت، ويكتفي بالطبطبة على كتفي، تمالكت نفسي وابتلعت بكائي، وقلت:

- الطريق الالتفافية ستستغرق في أحسن الحالات ساعتين، وربما نضطر إلى الوقوف على حاجز طارئ مدة لا يعلمها إلا الله، أنا أعاني من نزيف متقطع منذ أسبوع، وقد يزداد إذا ركبت السيارة، وأنت تعرف أن الطريق معظمه وعر.

لم يترك لي المجال لأكمل، بل أمسك بكتفي بذعر:

- نزيف منذ أسبوع؟ ندى، أنت مجنونة لماذا لم تخبريني، ولماذا تشربين الميرمية؟ ستزيد من النزيف!

- ماذا ستفعل؟ ستبقى مترددًا من إرسالي إلى نابلس؛ لأنك تعرف أن وعورة الطريق قد تعجل بالولادة في السيارة قبل دخول نابلس أو مستشفاها؟

غطيت وجهي بكفي وحاولت كتم صوت نشيجي، لكنني لم أقو على ذلك.

أمسك بيدي المقفلتين على وجهي وأبعدهما بلطف، وقال وهو يمسح نهر الدموع الجاري على وجنتي:

- سيحلها الله، لا تقلقي حبيبتي.

تحركت شفتاي بابتسامة باهتة لا تخلو من السخرية:

- أنت لا تؤمن بقدرة الله.

- أستغفر الله، أستغفر الله، ما هذا الكلام؟

قالها مستنكرًا ثم توجه إلى المطبخ، وأحضر كأس ماء ووضعها أمامي ثم توجه إلى غرفة الضيوف - حيث يجلس كل ليلة حتى ساعة متأخرة، يكتب تقارير العمل الخاصة بالإحصائيات السنوية للمنظمات غير الربحية العاملة في نابلس وقراها. كان جزءًا إضافيًّا من عمله-.

مدرسة القرية أقفلت أبوابها منذ أسبوع، وبدأت الإجازة الصيفية للتلاميذ، لكن الهيئة الإدارية ما زالت ملتزمة بالحضور، منذ أن بدأت قدماي بالتورم، ووزني يزداد إلى حد أشعر معه بضيق نفَس في كثير من الأحيان، قدمت على إجازة توقع ولادة بدون راتب، منذ شهر ونصف وأنا أجلس في البيت، لا أخرج إلا للضرورة.

اعتاد في الشهر الأخير زيارة المقرات التابعة للوكالة في القرى المجاورة، لمتابعة السجلات وكتابة التقارير وتسجيل الملحوظات التي ترفع دوريًّا للمقر الرئيس. الحافز المادي الذي سيأخذه مقابل هذا العمل في القرى ذات الطرق الوعرة كان أكبر معين له على التقليل من التبرم والتذمر، ولكنه لم يكن قادرًا على إخماد شعور خفي بالسخط، تنسل رائحته في كثير من الأحيان، هل بدا الآن واضحًا

أكثر لأنتبه إليه بعد زواجنا بسنوات، أو أن مشاعري التي رقّت كثيرًا مع متاعب الحمل والتفكير بالولادة جعلت الرؤية واضحة، أو هو تفرغي وجلوسي في المنزل معظم الوقت جعل فرص تفحص الأشياء والمواقف والأحاديث مهيأة لي تمامًا.

لا أدري كيف تمكن النوم مني هذه الليلة، مع ما أستشعره من قلق وحموضة في رأس معدتي تتعاون مع ضربات الطفلة على الجدار الذي يفصلها عن أول صرخة باكية، تعلن دخولها حياة أخرى غير تلك الوادعة التي تحياها في الداخل.

لم يكن غسان موجودًا لحظة استيقاظي، خرج اليوم أبكر من كل يوم تجنبًا لمواجهتي بأي نقاش جديد، كما جرت العادة عندما يحاول تهدئة أيّ احتدام بيننا، قرأت رسالته التي أرسلها عبر الهاتف: جهزي نفسك، سننطلق في الثالثة عصرًا.

شعور التسليم يستولي عليّ هذا الصباح، كنت مرهقة لدرجة أنني أتجنب التفكير في الأمر، بعد الظهر بساعة كان كل شيء جاهزًا، ارتديت ملابسي ووضعت حقيبة صغيرة فيها بعض الاحتياجات الضرورية، ولم أنس كوفلية أمي حليمة، كانت أول شيء دسسته في الحقيبة التي سترافقني في رحلة الولادة، رنّ هاتفي فالتقطته بوهن شديد، وما إن وضعته على أذني حتى جاءني صوت باسمة صديقتي من رام الله، سألتني عن أحوالي ونفسيتي قبل الولادة، ابتلعت ريقي واختنق صوتي فجأة على غير نية مني للبكاء، لكن نوبة منه غدرت بي، وتفلتت مني عنوة ولم أستطع إخفاء صوت نحيبي.

تساءلت باسمة في خوف:

- ندى، أأنت بخير؟

تمالكت نفسي وارتشفت رشفة ماء، ثم تابعت كلامي معها بعد أن استعاد صوتي بعضًا من القوة:

- سأذهب إلى نابلس اليوم، وسأمكث هناك إلى حين ولادتي.

- طريق القرى؟ تساءلت بصوت يعرف الجواب.

- نعم، وهل يوجد غيرها؟!

- لو يفتحون حاجز العقبات، والله حرام بينك وبين نابلس عشر دقائق فلِمَ الالتفاف كل هذه المسافة!؟

- لو تفتح عمل الشيطان، ولكن ربما أو لعلها تفتح من أجلي، ارتعش قلبي للحظة وأنا أردد يا رب، يا رب، وعادت دموعي تتدافع على وجنتي، ولكنني كبحت صوت البكاء في صدري، وأنهيت المكالمة مع باسمة، ثم جلست أتفقد من جديد ما وضعته في الحقيبة الصغيرة.

اهتز الهاتف معلنًا وصول رسالة، أمسكته على الفور، قرأت رسالة غسان، كانت كلمتين فقط، كلمتين مرّتا على قلبي المهموم وجعلتا دموعي تعود مرة أخرى، هذه المرة دموع الفرح وشعور لذيذ بأنه استجاب لي ولرعشة قلبي، هل كانت لحظة صدق؟ أو أن أبواب

السماء تلقفت دعائي بعطف؟ تلك الرعشة التي سرت ككهرباء خفيفة في داخلي وأنا أدعوه، لا بد أنها كانت لحظة قبول.

قرأت رسالة غسان مرة أخرى: (سنذهب عبر الحاجز).

بعد عشر دقائق كان غسان يدخل صالة المنزل، ويتجه إليّ وأنا متسمرة في مكاني بعد قراءتي لرسالته المقتضبة، أحاول جاهدة أن أمنع عقلي من التفكير ووضع الاحتمالات، كنت أتجنب أي خيبة أمل، وأنا في هذه النفسية المتآكلة والجسد الواهن.

احتضنني، وقال بصوت مضطرب:

- سيأتي جارنا ليقلّنا إلى أقرب نقطة يُسمح فيها للسيارات بالاقتراب، ثم سنكمل مشيًا على الأقدام، المسافة تحتاج إلى عشر دقائق من المشي لوصول الحاجز، وعشر دقائق أخرى بعد عبوره إلى نابلس، ثم سيكون أبو وسيم بانتظارنا في سيارته.

هززت رأسي موافقة دون أن أنطق بأي كلمة، الكلمات حشرت تمامًا في حلقي الجاف، كانت فكرة واحدة تسيطر على عقلي في اللحظة التي كان غسان يتكلم فيها، هل كانت تلك الرعشة التي سرت في جسدي عندما دعوت الله أن يفتح الحاجز من أجلي؟ هل كانت علامة قبوله لدعائي؟ هل فتح الحاجز من أجلي؟ أأستحق أن يتغير من أجلي أحد قوانين القهر الكثيرة التي أوجدها الاحتلال إمعانًا في تعذيب كل من يريد أن يحيا على هذه الأرض، الكل يعرف أن هذا

الحاجز بالذات حاجز فصل عنصري بغيض، يمنع أهالي القرية من الوصول إلى مدينة نابلس التي يتبعونها إداريًّا وتنظيميًّا، ويعتمدون على مرافقها العامة في تسيير أمور حياتهم.

قبل إغلاق طريق الباذان الواصل بين القرية ونابلس لم يكن أحد يذكر الشارع الجبلي الضيق الذي تصطف فيه السيارات والشاحنات وسيارات الأجرة متكدسة لعدة ساعات، قبل أن يشير جندي تختفي ملامحه تحت خوذة معدنية، تزيد وجهه قسوة، ويخفي عينيه خلف نظارة سوداء، وفمه يتحرك يمنة ويسرة يلوك لبانته، ويلوك معها أعصاب القابعين في سياراتهم، وكأن الكآبة التي تبعثها رؤية الجنود لا تكفي، حتى تلفح أشعة الشمس وجوههم وتغرقهم حرارة الجو في عرقهم، فيضطرون إلى إغلاق مكيفات السيارات بسبب إجبار جميع من يقف على الحاجز على إبقاء النوافذ مفتوحة، رأيت الجنود للمرة الأولى عندما اصطحبتني أمي وأنا في العاشرة من عمري إلى المركز الأمني في القدس، تم استدعائي بالاسم بعد أن قدمت والدتي طلبًا لتجديد الهوية والسماح بإضافة اسمي على هويتها، بعد أن قررت الإذعان للمّ شمل لحمنا إلى عمي، منذ ذلك اليوم أتخيل كل الجنود الذين يقفون على الحواجز في صورة ذلك الذي صرخ في وجهي متسائلًا عن علاقتي بالمخرب (أبو دقة). أمسكت أمي يدي حينها وضغطت عليها بشدة، ربما خافت أن يدفعني تهوري لأصرخ في وجهه: (بل هو الشهيد رامز أبو دقة، وأنا ابنته نطفته التي اجتازت جدران سجنكم، وتحدّت كل جبروتكم). أومأت برأسي وقلت:

نعم، ولعاب كثير يتجمع في فمي، أريد أن أبصقه في وجهه، كلما أتذكر ذلك اليوم أتساءل من أين جاءتني تلك الجرأة إلا من دماء والدي التي تجري في عروقي. وما زلت أحتفظ بمشاعر الكره التي ملأتني تلك اللحظة، لم أكن أعرف معنى (النطفة) حينها، لكنني كنت أستشعر أنها شيء عظيم.

أدرك أهالي القرية أن ذلك العذاب -الذي كان يمتد لساعات في انتظار فتح الطريق للعبور إلى نابلس- كان نعيمًا ونعمة لم يعرفوا قيمته إلا بعد أن تمّ إغلاقه بشكل رسمي، ومنع مرور كل من يحمل الدم الفلسطيني من عبوره، واستبدل به طريق داخلي يمر عبر عدد من القرى، وطرق التفافية وعرة.

أنظر في وجه غسان، وأحاول افتعال دعابة:

- أخبرتك أن معجزة ستحدث.

فيكتفي بالابتسام وحمل حقيبة الأغراض دون أن يبدي أي امتنان لانفراج القدر، أو هكذا خيل لي وجهه المتجهم.

بعد ساعة كنا نترجل من السيارة، اضطر سائقها إلى الوقوف في آخر نقطة من الشارع الضيق، واعتذر منا اعتذارًا لم نكن ننتظره، لعلمنا مسبقًا أن كل من يتوغل أكثر من الحد المسموح يعرض نفسه لبندقية القناص المتأهب في غرفة الحراسة المرتفعة.

كان غسان يمسك الحقيبة الصغيرة، بعد أن تخفف من كثير من الأشياء، حتى يوفر علينا عناء التفتيش ومصادرة الأغراض، وكان

من بين الأشياء التي أخرجها كوفلية أمي حليمة بسبب وجود تطريز لخريطة فلسطين وعلمها على جانبيها. (علينا تجنب وجود مزاج سيئ لدى الجنود قد يعرقل دخولنا).

هذه الرموز تحدّ لما يحاولون فرضه من هوية مزعومة لكيانهم، يعرفون تلك الحقيقة تمامًا مثلما نتعمد نحن تذكيرهم بها.

شعرت بالغثيان وأنا أنظر في وجه الضابط، الذي قلب أوراقنا وهوياتنا، سأل غسان بإنجليزية مكسرة: أنت كندي؟

هل ملامحه الأسيوية هي سبب إنجليزيته المعطوبة، تساءلت بيني وبين نفسي، وتلاعبت بمشاعري عبارة تميم البرغوثي: في القدس شرطي من الأحباش.

هز غسان رأسه مجيبًا بنعم بعد أن أعاد الجندي سؤاله بفظاظة قبيحة: أنت كندي؟ زادت أفكاري من شعوري بالغثيان.

(هل أصبحوا يأتون برعايا لدولتهم المزعومة من الآسيويين أيضًا؟) تساءل عقلي وأنا أحاول قمعه عن إرهاقي بهذه الأفكار، ولكنني لم أتمكن من كبح جماح الفكرة التي وددت لو أصرخ بها في وجوههم: أجئتم من الفلبين أم من كمبوديا أم من كوريا أيها المرتزقة؟

أردت أن أضرب غسان على كتفه، وأصحح جوابه كما أفعل دائمًا عندما لا يعجبني شيء من كلامه: بل أنت فلسطيني حتى وإن

كنت تحمل الجنسية الكندية. ولكنني التزمت الصمت والهدوء لعلمي أن غسان يميل إلى المسايرة في مثل هذه المواقف تجنبًا للصدام.

قال الجندي موجهًا كلامه إلى زميله، وهو يختم أوراقنا:

- لماذا لا يذهبون إلى كندا بدلًا من البقاء في مكان لم يعد لهم؟

- أوراقهم تقول إنهم يعملون مع الأونروا؟ أجاب الجندي الأخر الذي كان التبرم والضجر باديين على وجهه وهو ينظر إلى طابور المنتظرين الذين امتلأ بهم الطريق الجبلي الضيق القادم من قرية الباذان.

- (وكالة الطحين أولاد...). ردّ الجندي الذي كان مستمرًّا في مضغ لبانته، وهو يختم الأوراق بنزق كبير.

أعاد الأوراق إلى غسان الذي كان يبتلع ريقه عدة مرات بعد شتيمة الجندي الفجة، وأفسح الطريق لنا، ومررنا من الحاجز باتجاه نابلس مشيًا على الأقدام، وفي داخلي لعنات كثيرة على هؤلاء الجنود، ومن أتى بهم، خطر لي أن ألعن بلفور ووعده أيضًا؛ حتى لا أنسى صاحب الفضل الأول في جلب هؤلاء إلى بلادنا.

كان غسان يمتلك مثلي لعنات، ما إن ابتعدنا بالقدر الكافي حتى أطلق لها العنان:

- أولاد الكلب... حثالة الأمم... مخلفات الإنسانية.

لم أكن في حالة تسمح لي بمجاراته، فقد تملك التعب جسدي، وكانت رؤية قريبه الذي كان يلوح لنا من بعيد كرؤية طاقة النور في نهاية كهف شديد الظلام.

سارت بنا السيارة باتجاه منزل (أبي وسيم) القابع في حارة (الياسمينة) في البلدة القديمة من نابلس، تلك كانت زيارتي البكر لعاصمة جبل النار. كلمات أغنية تتردد في ذهني على الرغم من التعب الذي ألقى بثقله على جسدي:

من جبل النار طلع الثوار
طلعوا والفجر على الآفاق
يا نابلس يا باسلة خلي المراجل شاعلة
ولتعصري آمالهم برحى الرجال الثائرة.

انتابتني رغبة في ترديد كلمات الأغنية بصوت مرتفع في تلك اللحظات، ولولا خجلي من أبي وسيم، لرددتها بكامل حالة التأثر التي تنتابني كلما لامس المعنى قلبي، مرات كثيرة سخر غسان من تلك الحالة الأثيرية التي تنتابني عند سماع أغاني التراث التي تقص علينا سيرة هذه الأرض بكل ما مر عليها من أفراح وأحزان، نشتمّ فيها رائحة الليمون وشذا بيارات البرتقال في يافا، وحكايات الجدات عن (أبو حنيك الغدار الله يشله).

وددت لو كنت في حالة جسدية ونفسية مغايرة، إذًا لطلبت حينها من مضيفنا أن يتوقف كل حين لأستنشق ملء رئتيّ نسمات الهواء

التي كانت تنبعث من نافذة السيارة، ملامسة وجوهنا برقة كأنها ترحب بنا في نابلس.

في المرة الأولى التي رأيت فيها نابلس نسيت كل ما قرأته وشاهدته عن جمال المدينة، لا يمكن للخيال أن يرسم صورة حقيقية مهما كنا بارعين في الاقتراب من الواقع، السيارة تقتحم الحارات في البلدة القديمة ذات الطراز البديع، لم أجد وصفًا لها سوى أنها دمشقية الطابع، تلك الحارات الضيقة التي تعتليها أقواس حجرية، كتلك التي شاهدناها في المسلسلات الشامية. هي الحارة الشامية إذًا سبب الدفء الغريب الذي ينبعث من الحجارة القديمة المتراصة، انهمك أبو وسيم في شرح تفاصيل المكان حولنا ببشاشة وجذل كبيرين، يوجه كلامه مرة لغسان ومرة لي: (اسمعي عمو ندى نابلس كلها تحت أمرك، وإحنا أهلك واعتبريني في مقام الوالد).

تأبى مشاعري الهشة إلا استنزافي دائمًا، فأشعر بنداوة عبرة صغيرة تتولد في زوايا عيني مع حنان صوته الأجش، وهو يقول: (اعتبريني في مقام الوالد). شعره الأبيض الخفيف الذي يتجمع على طرفي رأسه تاركًا مساحة لامعة في المنتصف، ولحيته الخفيفة التي لا تكاد تغطي جلد وجهه، ونظارته الثخينة، ولهجته النابلسية التي تتخللها لازمة بين كل جملة وجملة (شفتوا كيف)، كلها كانت جزءًا من شعوري بألفة وراحة، لا ينغصها سوى جسدي المتعب وضربات أقدامها الصغيرة على جدران بطني.

دخلت السيارة بنا شارعًا مرصوفًا ضيقًا يتسع لسيارة واحدة، مررنا من تحت القوس الحجري وكأننا نعبر نفقًا مسقوفًا بحجارة تعود إلى مئات السنين، الأبواب الحديد للمنازل الحجرية -بنوافذها المرتفعة ذات الإطار الثخين- كانت متراصة على جانبي الطريق بطريقة تدفع للتساؤل: من أين يدخل الهواء إلى هذه البيوت؟ ولكن السقف المفتوح للأبنية يعفي العقل من تساؤله.

تخيلت (الحوش) الداخلي لها تمامًا، كما شاهدت في كثير من البرامج الوثائقية عن حارات البلدة القديمة وبيوتها النابلسية، وأصص الزرع التي تتدلى من كل جانب على الجدران، ونافورة صغيرة حولها مقاعد من القش، وموائد الإفطار على الطبليات الخشبية تفوح منها رائحة الشاي بالنعناع، ومناقيش الزعتر والجبنة البلدية المقلية.

نبهني صوت (أبو وسيم)، وهو يقول: (عمو ندى، هذه حارة القريون أشهر حارات البلدة القديمة، وبعدها حارة الياسمينة التي دوخت الكلاب الضالة لعنة الله عليهم).

كنت أعرف تلك الكلاب الضالة، فالتزمت الصمت وأنا أبتسم من طريقته في شتم من احتلوا البلاد. قال غسان مثنيًا على كلامه:

- على الرغم من أن تسميتها توحي بالرقة والمسالمة، إلا أن حارة الياسمينة معروفة بتاريخها النضالي، الاحتلال يكره شيئين في نابلس: حارة الياسمينة، والكنافة النابلسية.

ضحك أبو وسيم، وتساءل بصوته المجلجل:

(اشمعنى الكنافة).

أجاب غسان -وسط دهشتي من تلون شخصيته، الذي أشعر أحيانًا أنني لا أستطيع فعلًا تصنيف أفكاره-:

- الكنافة النابلسية تاريخها أقدم من وجودهم، كان أهل نابلس يصنعون حلوياتهم الخاصة من مكونات بيئتهم أيام الدولة العثمانية، قبل أن تحترق أجسادهم في أفران أوروبا كما يزعمون.

انتابني شعور غريب تجاه ما قاله غسان، سبقني أبو وسيم في التعليق على كلامه بنبرة ضاحكة:

- لم يخطئ أبوك بتسميتك غسان كنفاني.

ابتسمت رغمًا عني، وأنا أرى عينيه في المرآة الأمامية تهربان إلى متابعة الطريق خوفًا من أن يستمر ابن عمته -الذي يودع عقده الخامس- في اتخاذ اسمه المركب موضوعًا للتندر والمزاح، ولكنه سرعان ما أدار وجهه نحوه، بينما كان منهمكًا بمتابعة الطريق، وقال كأنه يتابع حديثًا داخليًّا:

- أتذكر آخر مرة عندما زرتكم في نابلس قبل وفاة عمتي بأشهر، كان والدي يحب حارات البلدة القديمة، ويأخذني في جولات ليعرفني بأحيائها، لا أنسى ما حدث ذلك اليوم، كانت الدبابة تقتحم حي الياسمينة بحثًا عن المقاومين، لا يمكنني أن أمحو صورة تصدي

أهل الحي لهم بأجسادهم من مخيلتي، ومنعهم من التوغل في أزقة الحي بحثًا عمن يسمونهم مطلوبين. تنهد كمن يحاول التنفس بعد إزاحة صخرة عن صدره، وأكمل:

- أبو صالح الخماش دفع الثمن غاليًا، بعد أسبوع هدموا جزءًا كبيرًا من منزله انتقامًا لتصدره ثورة الأهالي عليهم.

أشار أبو وسيم إلى برج موغل في القدم، ولكنني لم ألتفت نحوه، بل ظللت مشدوهة مما تفوه به غسان للتو، كانت المرة الأولى التي أسمعه يتحدث بهذه الطريقة، لم يكن يشاركني ذكريات من هذا النوع. هل أعرف هذا الرجل الذي أعيش معه حق المعرفة؟ بدا لي وهو يتكلم بتلك الحرقة التي انبعثت فجأة من صوته، وهو يذكر تصدي أهل الحي لدبابة الاحتلال كأنه مناضل حقيقي.

البرج الذي أشار إليه أبو وسيم أصبح خلفنا، لكنني التقطت من كلامه أنه برج الساعة الذي يقع في حي المنارة التابع لحارة الياسمينة، قرأت كثيرًا عن البرج، وشاهدت صوره في وسائل التواصل الاجتماعي، المكان لوحة أثرية حقيقية يغلب عليها وعلى البرج الطابع العثماني، أخبرنا أبو وسيم أنه الوحيد في مناطق الضفة الغربية الباقي من أبراج السلطان عبد الحميد، إلى جانب أبراج أخرى تتوزع في القدس، ويافا، وحيفا، وعكا. نظر أبو وسيم عبر المرآة الأمامية موجهًا كلامه لي:

– (عمو) ندى بعد أن ترتاحي من الطريق، سنأتي إلى البرج مرة أخرى في المساء، لا يجب أن يفوتك منظره في الليل، وقراءة الكلام المنقوش على اللوحة الرخامية على مدخل البرج.

هززت رأسي موافقة، وأنا أحاول رسم ابتسامة على وجهي تحت وقع الألم الذي يزداد في أحشائي.

وتفاخر أنه يحفظ الكلام المنقوش، وبدأ يتلوه مندفعًا دون تردد:

مآثر الخير بعيد الجلوس
أشرقت الدنيا بها كالشموس
كان من جملتها ذا البناء
لساعة قد جليت كالعروس
فليحيَ سلطان الورى غوثنا
عبد الحميد الفرد تاج الرؤوس
في عيده الفضي قد أنشئت
ذكرى ليوم فيه طيب النفوس

رغم ما كنت أعانيه من تقلصات بطني، ووخز أسفل ظهري، إلا أنني لم أبخل عليه بإبداء إعجابي بحفظه للكلام المنقوش على برج الساعة، كنت أعرف الكثير عن تاريخ الدولة العثمانية في فلسطين، منذ أن دخلت تحت سيطرتهم أعقاب معركة مرج دابق، قسموها إلى خمس مناطق أطلقوا عليها اسم سناجق: القدس، وغزة، وصفد ونابلس واللجون. ربما كان أفضل ما قدمه العثمانيون لفلسطين الوثائق الكثيرة

التي أثبتت الوجود الفلسطيني، قبل أن تقوم أوروبا بلفظ من أسماهم (إلياس خوري) في روايته (أبناء الغيتو).

التفكير بالوصول إلى منزل أبي وسيم بأسرع وقت شغلني عن المشاركة في الحديث الدائر، وألجم ما تداعى من أفكار يختزنها عقلي، بعد أن زاد الألم في ظهري وأسفل بطني.

عندما اقتربت السيارة بالفعل من منزله، أشار بيده نحو بناء من طابقين، واجهته المرممة بالحجر الأبيض لم تخف قدمه وعراقته:

- هذا منزل أخيكم أبي وسيم، قايضته بشقة كنت أمتلكها في الحي الشرقي، صاحبه ورثه عن والده، ولكنه كان جاهلًا بقيمة البيوت الأرضية، تبادلنا الممتلكات وتنازل كل منا للآخر.

لم تكد عجلات السيارة تثبت على أرضية الشارع المرصوفة، حتى ترجل أبو وسيم منها، وسارع لقرع جرس المنزل؛ ليستعد أهله لاستقبال الضيوف بعد أن اتصل بزوجته قبل دقائق؛ ليبلغها أن تستوصي بطعام الغداء.

خرج غسان بقامته الطويلة من السيارة، فتح الباب الذي تكورت جانبه، مد يده لمساعدتي على الخروج من السيارة، ما إن قبعت يدي في قبضته القوية، حتى صرخت بلا وعي أو قصد، التوعك في أحشائي تحول إلى ألم شديد، كأن قنبلة تفجرت في الداخل وشظاياها تتوزع ضاربة في كل أنحاء جسدي.

حاولت الخروج من السيارة وسط تشجيع غسان وشدّه على يدي، لكن الألم استولى عليّ تمامًا، وخرجت صرخة أخرى لفتت نظر أبي وسيم، فعاد مسرعًا يتساءل عمّا حدث، انهارت قوتي وبدأت بالبكاء وأنا أمسك بطني بيد، وأغلق فمي باليد الأخرى، وسائل مائي حارًّا يتدفق تحتي. أفلت غسان يدي وركب إلى جانبي من الباب الآخر، وطلب من أبي وسيم الذهاب إلى أقرب مستشفى للولادة.

بعد نصف ساعة كنت على سرير الطوارئ في مستشفى النجاح الوطني الجامعي، في منطقة عصيرة، قالت الممرضة: يلزمها دخول فوري إلى قسم الولادة، وإلا خسرنا الجنين.

استسلمت تمامًا من شدة الإجهاد وشظايا الألم المتناثرة، كنت أفكر فيما يعنيه كلام الممرضة، جهزت نفسي للمكوث أسبوعًا على الأقل في منزل أبي وسيم، قبل أن يحين الموعد المتوقع للولادة، ولكن يبدو أن الطفلة تستعجل الخروج إلى الحياة، رفساتها المتكررة والمصاحبة لانقباضات الطلق تسبب لي تسارعًا في ضربات القلب، وصعوبة في التنفس.

ليتك يا صغيرتي تعلمين أنك ستأتين إلى عالم مرهق، لا يستحق منك هذا الاستعجال لتسجيل اسمك في قوائم ساكنيه، ولكنها فعلت وبكّرت في القدوم، وليتها لم تفعل، إذًا لكانت فترة مكوثها فيه أطول.

*

انثيالات في الخيمة

من أكثر التشبيهات التي كانت تستثير سخريتي، وتستخرج من داخلي شعورًا يشبه الشعور الذي يصيب المرء، عندما يتذوق شيئًا لزجًا لا طعم له، تلك التي يتراشقها الأحبة في المسلسلات والأفلام، أستغبي حوارات العشق الكاذبة، التي يحوك قصتها كتبة بارعون في السيناريو، تتدفق الكلمات من أقلامهم فوق الورق، ويؤديها الممثلون أداء بائسًا غير مقنع بحقيقة وجودها.

أبحث في داخلي عن إجابة لسؤال يدق في أعماقي كلما تأملت وجهه: كيف استطاع غسان أن يمحو من داخلي تلك السخرية من فكرة الحب؟ وكيف تمكن حبه من قلبي، وفرض نفسه على عقلي الذي لم يكن يحسب حساب أي فكرة من أفكار القوالب الشعورية الجاهزة؟ كيف ومتى كنت بهذا الخضوع حتى يسطو رجل ما على مشاعري بالطريقة التي فعلها غسان؟

عندما وقع كتاب الأجنحة المتكسرة في يدي للمرة الأولى قبل لقائنا بسنوات أعجبتني شاعرية جبران ولغته العذبة، ولكن عقلي كان

يضحك من وصفه لمحبوبته بتلك الأوصاف المرهفة، بل كنت أستهجن أن يصل الأمر بين اثنين إلى هذه الرومانسية الرقيقة والحب المتدفق.

في لقائنا الأول في المقر الرئيس للوكالة عرفت شيئًا واحدًا، وهو أن هذا الشاب لن يعبر السبيل كشيء طارئ يمضي بعيدًا عن حياتي. الوظيفة المنتظرة التي حلمت بها كمنقذ لي من حالة الخوف التي يحيطني بها خالي عبد اللطيف العايد وزوجته حليمة كان يحذرني دائمًا من افتعال أي تصرف يعرضني للمواجهة مع أي جهة، (اسمك على اسم أبوك، اليهود لا يرحمون)، هكذا كان يذكرني دائمًا بالحقيقة، أنني ندى رامز أبو دقة.

العمل في وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين حلم زرعه خالي في نفسي: (عندما تحملين بطاقة موظف في الأمم المتحدة فلن يقترب منك أولاد الحرام إياهم).

كنت قد تدربت كثيرًا على الانطباع الأول الذي سأتركه في المقابلة، ذكّرتني صديقتي باسمة مازحة أن عليّ تكثيف التدريب، قلت بثقتي التي تعايرني بها في خيباتي الكثيرة:

- سأكون على طبيعتي فقط.

صوت قهقهتها استفزني، وودت لو أغلق فمها بيدي، وأكتم هذه الضحكة التي تشير ببذاءة واضحة إلى عيوب لا يكشفها إلا شخص مقرب.

- إياك أن يكتشفوا شخصيتك المجنونة، من أول لقاء ستسمعين لحن الوداع.

لم تغضبني دعابتها، لكنها لم ترقني لكثرة ما سمعتها منها، استمرت في قهقهتها المستفزة رغم تقطيب حاجبيّ.

كعادتي ضبطت نفسي أن أكون قبل الموعد بعشر دقائق في مبنى الوكالة، بمنطقة بيتونيا بين رام الله والقدس التابعة إداريًّا لمحافظة رام الله والبيرة، دخلت حيث أشارت لي السكرتيرة إلى غرفة صغيرة، يتوسطها مكتب خشبي فوقه علبة أقلام فارغة، وخلفه لوحتان ورقيتان كالروزنامة تقفان بلا حياة على صفحة الجدار: الأولى تحمل شعار الأمم المتحدة ووكالة غوث اللاجئين، والثانية امتلأت بصور تشرح عمل الوكالة، تتشارك كلها في التعبير عن حكايتنا مع نونين: نون النكبة، ونون النكسة، وما جاء بعدهما من بؤس تعددت أشكاله، وتلونت ضروب إذلاله، واتخذت مظاهر حضارية تمثلت في هذا الكيان البديل عن الوطن، المسمى وكالة غوث اللاجئين، تمد يدها بالعون والمساعدة على الاستمرار في الحياة، مقابل أن تبقى يد الوطن مقيدة إلى الخلف، مع الوقت وتوالي السنين أوهمونا أنها مشلولة بالكامل، وأن علينا تقبيل الأيدي الجديدة، التي لم تكن إلا أطرافًا صناعية.

قطع صلة الرحم بين الأرض وأبنائها هدف من الأهداف المستورة للوكالة، هذا ما كان خالي يردده دائمًا، وهذا ما كنت أرفض أن أكون جزءًا حقيقيًّا منه خلال عملي تحت مظلتها.

الانطباع الجيد والجاد الذي أردت تركه في المقابلة جعلني أرتدي (جاكيتًا) أسود بأربعة أزرار، تكاد أكمامه تبتلع أنفاس الخاتم الفضي في يدي اليمنى، وقماشه الثخين يخنق جسدي حتى شعرت أن حرارتي قاربت الخمسين.

مضت الدقائق العشرة التي صرفتها من جيبي الخاص، وبدأت عقارب الساعة تدور لتنهي مسيرة عشر دقائق أخرى، ووجدت الهدوء يحاول الانسحاب ليحل محله شعور بالغضب من هذا الإهمال، فمنذ أن دخلت الغرفة لم يأت أحد. مضت عشر دقائق أخرى عززت حرارة ضغط (الجاكيت) من حرارة الغضب، فبدأت أتخلى عن هدوء أعصابي بالكامل، وأخذت أذرع الغرفة وأخرج رأسي منها علّني أجد من أسأله، لكن مكتب السكرتيرة فارغ كأنها تلاشت في الهواء، خرجت من الغرفة والغضب يتطاير من وجهي، فاصطدمت بعامل البوفيه سألته عن مقابلة التوظيف، فأشار إلى درجات سلم على يسار الممر، وأخبرني أن أسأل السيد غسان في الديوان.

صعدت السلم بعد أن تملكني الغيظ تمامًا، وداخلني شعور بالضيق، وقلت في نفسي: (إذا كانت هذه البداية، فالنهاية معروفة).

خطر لي أن أعود إلى المنزل؛ فالأمور واضحة ومؤكد أنهم اختاروا موظفة قبل أن يضعوا الإعلان التضليلي، لا سيما أن المدعو غسان لم يكلف نفسه عناء الحضور الشكلي إلى غرفة المقابلة التي تركت فيها وحيدة ما يقارب الساعة.

دخلت المكتب الذي يتصدر المكان، توجهت إلى الشاب المنهمك في طباعة شيء على جهاز الحاسوب، يأكل الجهاز نصف وجهه المنحني بنظارته ذات الإطار الأسود الأنيق.

خرجت كلماتي مندفعة كسيل تدحرج من فوق حافة صخرية نحو واد عميق:

- أين السيد غسان؟ ما هذا الاستهتار؟ إذا كانت المقابلة شكلية، فلماذا أكدتم عليّ الحضور في الموعد؟ هل هو نائم في بيته، أو خرج لإحضار طلبات المدام؟

كنت أصرخ وخيط من العرق يسيل على ظهري، كأنه مزراب تجمعت فيه بقايا أمطار.

التفكير في أن الوظيفة ذهبت لغيري دون أن أعطى فرصة، أوقد حممه في عقلي، فضربت يدي على المكتب، وأنا أصرخ بصوت متحشرج تمامًا من الانفعال:

- إذا كانت المقابلة وهمية، والوظيفة ذهبت بالواسطة إلى من تريدون، فلماذا أرسلتم لي موعد المقابلة؟ متى سنتعلم احترام الآخرين وأوقاتهم؟ وأين هو غسان؟ خرج السؤال بتهكم بالغ.

اعتدل الشاب في جلسته، وصوب نحوي نظرة هادئة ووجهًا وسيمًا مبتسمًا، وقال:

- ماذا تريدين من غسان؟

- هل أنت أطرش؟ ألم تسمع ما قلته.

- لا، لست أطرش. قالها بابتسامة عريضة، وقام من مقعده، واستدار من خلف المكتب ووقف في مواجهتي تمامًا، وبهدوء قال:

- معك السيد غسان كنفاني شخصيًّا.

مستهزئة وحانقة أجبته:

- وأنا غادة السمان.

صوت ضحكته في تلك اللحظة، وإشارته إلى لوحة خشبية صغيرة على مكتبه المكتوب عليها اسمه: «غسان كنفاني» منذر الشيخ يونس جعلاني أستوعب أنه اسم مركب، وأن هذا الشاب -الذي ربما يكون في منتصف عقده الرابع- هو الموظف المسؤول عن المقابلة.

أخذت حمم غضبي تخمد، وبدأت وجنتاي بالاحمرار من الموقف المحرج، لا سيما بعد ذكري لغادة السمان، ضحكته التي يحاول كبحها تعني أنه مطلع على سيرة الأديب غسان كنفاني، وما أشيع عن علاقته بالسورية غادة السمان، وكيف لا يكون مطلعًا، وهو يحمل اسمه؟

طريقتي الخاصة في الرد على الأحاديث والحوارات تحرجني في كثير من الأحيان، كبحت نفسي مرات عديدة عن الرد بعبارة أو كلمة من وحي خيالي، المليء بالقراءات الأدبية والشعرية، خيالي الذي لا يفهم سواي طريقته في ربط الأمور بعضها ببعض، ودمج الصور والكلمات في إطار صنع داخل هذا الرأس فقط، رأس ندى.

ولكن عقله كما عرفت لاحقًا يتقن أيضًا ربط الأشياء ببعضها، ليكوّن منها المعنى الذي يريد، بل يخضعها لما يريد. أدركت من ابتسامته العريضة التي ظلت ترافق حديثه وهو يشرح لي أن مكان المقابلة كان منذ البداية في الطابق الثاني، حسب الموعد الذي أرسلوه، وأنهم أنهوا المقابلات مع المرشحتين الأخريين منذ نصف ساعة.

أدركت أنه لن يتركني وشأني، ولن يغفر لي أنني من بدأت برمي الطعم ولو بدون قصد، ولن ينسى تلك الفتاة التي تصغره بعدة سنوات تمر مرور الكرام في حياته، وهكذا كان.

بعد أسبوع وصلتني رسالة من الوكالة تطلب تزويدهم ببعض الأوراق لإتمام إجراءات التوظيف.

اللقاء الأول تبعه عدة لقاءات دون تدبير، بل بتواطؤ ظروف عملنا الذي أصبح متداخلًا، بعد أن أوكلوا لي مهمة التنسيق مع المكتب الرئيس لاستقبال شكاوى المباني المدرسية التابعة للأونروا في مخيم قلنديا وشعفاط داخل الخط الأخضر، ورفع تقرير مفصل باللغتين العربية والإنجليزية. كانت أولى مهماتي في عملي الجديد، قبل أن أنضم رسميًّا إلى الكادر التعليمي لمدارس الأونروا.

على الرغم من علمي مسبقًا أن العمل في المناطق التي يسيطر عليها الاحتلال سيكون محفوفًا بالمخاطر والصعوبات، إلا أنني قبلت الوظيفة لسببين أو ثلاثة: أولها الراتب الذي لن أحصل على مثله في أي مؤسسة أخرى. وثانيها: أنني ندى التي تعتبر كل هذه الجغرافيا

ملكها الشخصي، بل ورثة جدها التي خصها بها، ومن واجبي ألا أثق بالآخرين لمتابعة شؤون ممتلكاتي. والثالث الذي أخفيه ولا أحب الاعتراف به: الحماية التي أبحث عنها أنا ابنة الأسير (أبو دقة).

عندما أخبرت فرنسيس بهذه الأفكار بعد أن توطدت علاقتنا ضحكَت كثيرًا، وكان تعليقها كماء المحلول الذي عليك أن ترجه ليمتزج، وإلا بقي جزآه مفصولين عن بعضهما.

- لو كان كلّ الفلسطينيين يفكرون مثلك، لما بقي فيها مستوطن.

هكذا رجت المحلول واختلطت مواده؛ ليتحول طعمه المر في حلقي.

هل هناك فلسطيني لا يفكر بهذه الأرض المغتصبة كملك شخصي له؟ وواجب الذود عنها يقع عليه وحده؟ كم يبدو هذا التساؤل ساذجًا، وأنا أجلس في خيمة من خيام النازحين في دير البلح، جادت بها إحدى اللجان التي تكفلت بتوزيع ما يصل إليها من معونات طفيفة.

أخبرتها ذلك اليوم ونحن نجلس في ساحة المدرسة مساء أحد أيام الجُمَع -يوم كنا في رام الله نشرف على ترتيب طرود المعونات التي جاد بها مستعمر سابق لهذه البلاد- أن مشكلة الفلسطيني مع العالم أنه لا ينظر إليه كنظرته إلى بقية البشر.

تلك السيدة الأمريكية التي حضرت إلى رام الله مع البعثة التطوعية الداعمة لأعمال الأونروا تمتلك وعيًا لم أر مثله في كثيرين،

سرعان ما تمكنت من فهم طبيعة الحياة والبشر في هذا الكوكب الذي يسمى فلسطين.

ابتسمت حينها، وقالت: وكيف ينظر العالم إليكم؟

- يقنع نفسه أننا مجبولون من طينة مغايرة لطينته. ستسألينني: وما طينة هؤلاء وأولئك، وبِمَ تتمايز الطينتان؟ باختصار عزيزتي فرنسيس، الجميع يطالبنا بالتدفق: تدفق في الصبر، تدفق في تقديم البطولات، تدفق في التعايش مع الاحتلال، وفي ذات الوقت خوض بطولات تطرب المتفرجين، تثبت أننا لم نذعن لصفقة بيع الوطن، إذا خرج شاب فلسطيني إلى الخارج للدراسة أو العمل تلقفته ألسنة المتخمين وسماسرة الوطنية، كيف يخرج؟ هذه خيانة! كيف يفكر الفلسطيني أن يكون هو أيضًا إنسانًا مثلهم، يتمتع بما يتمتعون به من حرية وتعليم وشهرة؟. قاطعتني حينها متسائلة:

- هل كانت لديك رغبة بالمغادرة؟ ألم تفكري في الذهاب إلى أي بلد من البلدان التي يهاجر إليها الفلسطينيون للدراسة أو العمل؟

لم أكن أتمنى أن تحاصرني بهذا السؤال، الجواب عليه صعب جدًّا الآن بعد كل ما مررت به، طوال حياتي كنت على يقين أنني أملك الإجابة القاطعة، ذلك اليقين جعلني أعوم في تيار مغاير للتيار الذي أرخى غسان جسده داخل أمواجه تمامًا، تشده وتسحبه حيث تسير، هكذا كنت أظن، هكذا أمضيت حياتي، قلبي مزدحم بعبارات

الاحتجاج، وكلمات لاذعة تتسرب في أي حوار يتعلق بهويتنا وعلاقتنا بهذه الأرض، كأنني المعنى الحقيقي للمشي في حقل من الألغام، كل ما حولنا لديه قابلية للانفجار والاشتعال في أي لحظة، دون حاجة إلى سبب يخضع لقوانين المنطق، أو تسوّغه واقعية سير الأمور.

قلت وأنا أغوص عميقًا في أفكاري:

- لا تظني أنني أملك جوابًا يرضي فضولك، طوال حياتي الماضية تعاملت مع هذا السؤال وكل من يطرحه أو يثير نقاشًا حوله بروح ثائرة، ورافضة لهذا الطرح الذي أراه من ضروب الخيانة ليس إلا، ولكنني مع الوقت أدركت أننا ضمن دائرة الخيانة في نظر الكثيرين خارج هذه الأرض.

مطت شفتيها وارتفع حاجباها تلقائيًّا، وبدهشة من يريد أن يجرك إلى المتابعة قالت:

- كيف؟

لم يرقني سؤالها المقتضب، فأجبتها بسؤال لا يخلو من نبرة الاستفزاز:

- تأملي في سيرة مجتمعك الذي أتيت منه كيف يتعاطى معنا، تعتبرنا بلادكم لا شيء؛ لذلك لم تتعامل مع وجودنا أنه حقيقة، حتى شهداؤنا الذين جربوا كل أنواع الموت الممكنة، والتي لا نستطيع تخيلها هم لا شيء.

ابتسمت ابتسامتها التي لا تخلو من لمعة الحزن المصاحبة لعينيها، منذ أن تعرفت إليها في رام الله قبل اجتماعنا مرة أخرى في غزة، وقبل أن تعلق على كلامي استرسلت في حديثي:

- نحن متهمون دائمًا وعلينا نفي التهم، نفي الكثير منها يخرجنا عن بشريتنا، علينا أن نثبت أن أجدادنا لم يبيعوا أراضيهم للغزاة، وأن سبب بقاء هذا العدو جاثمًا على أنفاسنا هو انقسامنا وخيانات البعض منا، في كل مرة تطفو فيها قضية فلسطين على سطح أخبار هذا العالم، تنكشف سوءة البعض ممن يرون إطلاق تهم الخيانة والعمالة أسهل بكثير من تحمل تبعات الوطنية والشرف، حتى النفاق والتصنع والتظاهر بحب الوطن لم ينلهم منه شرف، خناجرهم تتفلت من بين أياديهم للطعن في خاصرة أرض جريحة، وخريطة تمتلئ بالندوب.

بلادنا - يا عزيزتي - مكتظة بالمآتم، والعجيب أن شهية الرجال والنساء منفتحة على الزواج والإنجاب، كأنها ليست بلاد حرب وقتل، وأسر مؤبد، وموت مفاجئ.

شجعني صمت المرأة الأمريكية وحسن استماعها لأن أكمل هذياني، فليس هناك ما يضمن أن تأتي الفرصة ثانية لأن يصمت مستمعي طويلًا أمام بوح تعتّق في وجداني، منذ وعيت نفسي أعيش على أرض النبوءات الموعودة لشعب جمعوه من أطراف الأرض وشتاتها، ليصنعوا من شراذمه قطيعًا يسمى مواطنين بهويات (مجعلكة)، ما زالوا منذ أكثر من سبعين عامًا يحاولون فردها على رقعة الوطن.
قلت وأنا أشد وثاق يدي فوق ركبتي المجتمعتين إلى صدري:

- أريد أن أبوح لك بسر.

لم أنتظر أن أسمع ردها؛ فقد كانت ابتسامتها وهزة رأسها الخفيفة أكثر مما أريد لأتابع كلامي:

- جئت إلى هذه الحياة من نطفة مهربة؛ فوالدي سجين إداري، لعلك لا تعلمين معنى أن يكون الإنسان سجينًا؛ لأن حياتك تستند على نحو ما إلى لائحة تسمى القانون، ومن حسن حظك أن أبناء جلدتك يتقنون إيهام شعوبكم أنهم يطبقون هذا القانون عبر تطبيقه أحيانًا، فكيف يمكنني أن أشرح لك مأساة والدي المضاعفة؟

السجن الإداري يعني لا وجود للائحة اتهام واضحة، أي دون محاكمة معلنة أو حتى سرية، يتجدد التوقيف الإداري هكذا بلا شيء، سوى أنه هبة منحوها للمراكز الأمنية، وما أسهل حجتهم التي لا تكلفهم العناء؛ ارتياب الاستخبارات في دعمه لفصائل المقاومة تهمة مغلفة، موضوعة على رف طباعهم اللئيمة، لذلك ظل توقيفه يتجدد بشكل تلقائي لمدة ثلاثة أعوام.

ظهرت الدهشة على وجهها الأبيض المنمش، وأزاحت خصلة شعرها الأشقر المعقوص إلى الخلف، وقالت:

- لقد أثرت فضولي ودهشتي يا ندى، هل هذا يعني أنك لم تري والدك لمدة ثلاثة أعوام؟ كيف يتمّ ونحن في القرن العشرين توقيف إنسان بلا محاكمة كل هذه المدة؟

عندما اجتمعنا في مخيم النازحين أخبرتها الكثير مما قد يجعلها تفهم، ويجعلني أخفف قليلًا من أعباء صدري، أخبرتها أنني عشت الشطر الأول من حياتي خائفة من الإفصاح عن هويتي وانتسابي لوالدي الأسير الذي تحدى قضبان سجنه، وغرس في رحم زوجته شيئًا من ماء رجولته. أخبرتها أن كثيرًا مما يدهشها في تفاصيل حياتنا هو جزء من أميز خاصية تسري في جيناتنا جميعًا، المعاندة والرفض مكنت هؤلاء الناس من العيش طوال هذه العقود، المكابرة على الألم والقهر جعلا من رحم أمي أرضًا خصبة سقتها نطفة واحدة، نطفة فرت من دائرة الموت في عبوة صغيرة مخبأة قرب القلب، لتستقر بعدها كائنًا دمويًّا يتشبث في الجدار المحيط به، ويغرس نفسه رغمًا عن كل أرتال الطغاة الذين حاصروه، وما زال يتشبث حتى دقت أولى نبضاته في ذلك الرحم.

اختارت صاحبة الرحم الاختفاء عن أعين الفضوليين والمتشدقين والخائنين حتى حان وقت الولادة؛ لذلك...

ابتلعتُ ريقي، وشعرت بدمعة تريد أن تكسر جدار القوة في صوتي، قلت ورعشة تهزني من الأعماق:

- لن تفهمي كثيرًا مما أقول، وهذا يشعرني بالراحة.

- لأنني غير عربية، أم لأنك تعتقدين أن بلادنا ضالعة فيما حدث لكم؟

- في الحقيقة هذا وذاك. قلت وأنا أحفر عميقًا في داخلي، واستطردتُ:

- من أكثر الأماكن التي أحبها جنين، المكان الذي يذكرني دائمًا بقصة الحزن الفلسطيني المكلل باللجوء، دخلتها متطوعة بعد سنوات عديدة، ولكنني ما زلت أحبها، أحب مخيمها مخبأ أمي الآمن بعيدًا عن الأعين التي ترصد كلّ شيء، أحب الخالة أمّ غيث التي آوت أمي ورعتها إلى حين ولادتها، فقط لأنها زوجة الغالي الذي أنقذ ابنها الوحيد من عصابة المستعربين، الذين حاولوا خطفه من مغسلة السيارات التي يعمل فيها، وحرره من بين أيديهم، ولكنهم اقتادوه بدلًا عنه، ورموه على ذمة التحقيق، وبقي مسجونًا إداريًّا طوال أعوام ثلاثة.

سألتني فرنسيس مستغربة: المستعربون؟

أجبتها أنهم عصابات متنكرة بثيابنا وملامحنا، تتغلغل في شوارعنا وأسواقنا، تندس بين الشبان، بحثًا عن أهداف من الشباب الفلسطينيين الذي لفقت له تهمة، أو حتى لتلفيق أي تهمة؛ ليتقاضوا أجورهم ممن جندوهم لهذا الفعل الخسيس.

توقفت عن الكلام والرعشة تحولت إلى نوبة بكاء، تغلبت عليها طوال حديثي معها، تصديت بنجاح لفكرة البكاء أمام هذه الأمريكية، شيء في داخلي يعتبرها إعلان هزيمة وانكسارًا أمام هذه المتطوعة الشقراء، لكنني ضعفت وبكيت أمامها، مع أنني لست واثقة من مستوى الشعور الإنساني الذي دفعها للقدوم إلى مكان مثل بلادنا.

دفنت رأسي بين كفي وبكيت بحرقة مضاعفة: واحدة لأنني خسرت معركة الثبات أمام هذه المرأة الأجنبية، وأخرى لأنني وجدت نفسي أحدثها عن جنين بنفس الكلمات التي قلتها لغسان ذات يوم، لوهلة ظننته هو من يسمعني، وهو من يجلس بجانبي، غابت فرنسيس عن الصورة تمامًا للحظات، لكن سرعان ما اتضحت معالم جسدها المترهل، وهي تسند رأسها إلى يديها، محدقة في وجهي تمامًا، فبكت.

❊ ❊

بين ريتا وجنين

هل ما زالت المعجزات تحدث؟

ما إن وصلنا منزلنا في القرية، حتى جاءنا خبر أن الحاجز تم إغلاقه ثانية إلى إشعار غير معلوم. هكذا وبهذه الطريقة القدرية المحضة فتح الحاجز لساعات قليلة، لتعود متاريسه للصدود أمام المارين، ولتعود بندقية القناصة تترصد كل من يقترب.

نعم ما زالت المعجزات تحدث؛ لقد فُتح الحاجز من أجلي، هذه الفكرة من حقي تمامًا أنا أؤمن بها، لا يملك أحد حق مناقشتي في هذا الإيمان، قلبي هو الذي ارتعش تلك الرعشة التي أجزم أنها سماوية تمامًا، أعاد الجيش إغلاقه بعد عودتنا مباشرة، كأنهم كانوا في انتظار أن أعود عبر طريقه المختنق بروائح بساطيرهم الكوشوكية.

هل بعد ذلك دليل على أن يد القدر تدخلت من أجلي؟ هكذا كنت أحدث نفسي بلساني الداخلي، بعد أن فقدت كل قوتي في ذلك اليوم العصيب، ولم تكن لدي أي رغبة في مشاركة أفكاري مع

غسان، وامتدت تلك الرغبة فيما بعد وتحولت فجوة كبيرة اخترقت طريق حياتنا، وحولته إلى جرفين بينهما وادٍ يمتلئ بما ينهال فيه من معاركنا الكلامية، واتهام كل واحد منا للآخر بما يراه عيبًا وتقصيرًا في شخصية شريكه، كما يحدث دائمًا عندما يقرر الشركاء فض اتفاقاتهم.

بدأت الهوة صغيرة عندما صدمني بعد ثلاثة أيام من العودة إلى الباذان، بعد رحلة الولادة العصيبة، حين دخل ممسكًا بشهادة ميلاد ابنتنا (ريتا). الاسم الذي ظل يخبئه في قلبه ليصدمني به في وثيقة رسمية لا تقبل الاعتراض، بقي الاسم حسرة في قلبي، بعد أن كنت طوال تسعة أشهر أجهز ملابسَ (لجنين). هكذا تحولت ابنتي من (جنين) إلى (ريتا).

مرات كثيرة تجادلنا حول الاسم، وفي كل مرة كان ينتهي الجدال بصمته أو تغييره للموضوع. أي بلهاء مثلي كانت ستشعر بذات شعور الانتصار الذي كنت أشعره في تلك اللحظات، وأي بلهاء مثلي لم يكن لتفكر أن انسحابه كان تكتيكيًّا تمامًا، كما ينسحب النمر من مطاردة فريسته؛ ليفاجئها بقفزة من الجانب الذي ظنت أنه لن يطالها منه.

بعد أن قرأت اسمها ريتا غسان كنفاني الشيخ يونس، أدركت أن انسحابه كان بسبب نية الغدر التي بيتها مسبقًا.

هل قلت غدر؟؟ بل هو أكثر من ذلك، وأشد تمزيقًا لقلبي.

ضحك كثيرًا عندما واجهته بما يتراكم في شعوري، واستخف بما بدأ ينبت داخلي، كانت ثقته بمحبتي له أكبر من أن يتخيل أنها ستهتز، بسبب استئثاره بتنفيذ رغبته في تسمية ابنتنا.

في إحدى جولات نقاشنا التي أصبحت تتحول إلى جدال استفزني صارخًا:

- لماذا جنين؟ هل بلغت بك الروح الوطنية هذا الحد؟ تلصقين بابنتك تهمة تتنقل بها على خريطة من الحواجز؟

- وهل اسم جنين تهمة؟ أجبته بحدة، ثم تابعت:

تعلم أنني أحب هذا الاسم لأنني ولدت في جنين، وتعلم أنها بالنسبة إليّ أيقونة الكفاح الفلسطيني، أم أنك نسيت مجزرة المخيم التي أودت بالخالة أم غيث وعائلتها.

- وهل هذه أسباب كافية لتسمية ابنتنا باسم مكان خاض اليهود فيه أسوأ معاركهم.

ضحكت على جملته ضحكة باهتة وعاتبة على مروره العابر فوق مخزون أحزاني.

- أأنت محامي الدفاع عنهم؟ هل أنت غاضب لأجل مشاعرهم يا أبا جنين، أو أنك نسيت أنني أخبرتك سابقًا أن السجانة الروسية التي كانت تبصق العلكة في وجه أمي كلما ذهبت لزيارة والدي كان

اسمها (ريتا)؟ أو تراك صدقت مزاحي أنني أعترض على الاسم بسبب ما نسجوه من قصص حول محبوبة محمود درويش اليهودية.

ظل صامتًا بعد سردي الموجز لبعض من سيرة الحزن التي تقبع في أعماقي، كأنه يسمعها للمرة الأولى وليس المئة.

وتابعت حينها الكلام -الذي قال لي فيما بعد أنه ملّ سماعه من كثرة لوكه واجتراره- :

- كيف سنوثق حقنا في أرضنا إذا لم نغرسها في أسماء أبنائنا؟ إذا كانت أوسلو قد جعلت الصهاينة يتخلون عن جنين وطولكرم ورام الله مؤقتًا، فما الذي يضمن لك ألّا تأتي معاهدة جديدة في المستقبل تمنحهم حق شطب هذه المدن من خريطة الوطن، واستبدال أسماء بها تعبر عنهم، كما استبدلوا عكو بعكا، وتسفات بصفد، وأشكلون بعسقلان؟ كيف ستبقى ذاكرة الجغرافيا الفلسطينية حية في الأجيال القادمة، إذا تخلينا عنها ورضينا بتحولها إلى مجرد مناطق تتوزع بين أ وب وج؟

كلما سردت مثل هذا الكلام على مسامعه، شعرت بمرارة من ردوده الباردة أو المستنكرة لكلامي:

- ستجعلين حياتها صعبة بهذا الاسم، كوني واثقة من ذلك.

هكذا كانت تنتهي نقاشات اختيار اسم الطفلة، التي كانت ترقد في أحشائي في كل مرة، بعد مرور الوقت أدركت أن المرارة التي كنت

أحسها إنما كانت مرارة خذلان، كان ينمو بطيئًا في قلبي تجاهه دون أن أشعر.

إذًا ابنتي التي قطعت حاجز العقبات مشيًا على قدمي ذهابًا وعودة، من أجل أن تدخل إلى هذه الدنيا بسلام اسمها ريتا، بكيت كالمجنونة وأنا أقلب في الهاتف بحثًا عن معنى الاسم الذي كرهته، بسبب ما سمعته من أمي عن بذاءة السجانة التي كانت تفتشها في كل مرة تزور فيها والدي في سجنه، بطريقة وقحة ومستفزة. تساءلت من بين دموعي:

- أليس اسمًا يهوديًّا؟

فيجيبني:

- يا ندى تبالغين في ردة فعلك، الاسم جميل و(مودرن) ولطيف، وأيضًا معناه جميل مشتق من اللؤلؤ.

أسأله باكية:

- ألم تكن حبيبة محمود درويش اليهودية تدعى ريتا؟

فيضحك مقهقهًا:

- حتى في هذا تزجين بالرجل؟

- لأنك تقدسه، أحببت أن تسمي ابنتك على اسم اليهودية التي قيل: إنه أحبها.

- تبالغين يا ندى، أفكارك خيالية وشاعرية.

- أكرهك.

- بل تحبينني.

يقولها واثقًا، ثم يضحك.

ولكنني في تلك اللحظة كنت صادقة تمامًا، نعم شعرت بعد ذلك الحوار أنني أكرهه، في اليوم التالي نسيت ذلك الشعور مع أول قبلة طبعها على وجنتي، وهو يناديني مازحًا:

- صباح الخير، يا أم جنين؛ جنين في المنزل، وريتا في الأوراق الرسمية، أظن أن هذه عدالة مطلقة تعجز عن تحقيقها كل منظمات حقوق الإنسان.

ضحكت حينها، وطويت صفحة النقاش حول الاسم واستسلمت للأمر، وصممت أنها جنين حتى لو كانت شهادة ميلادها تقول عكس ذلك، لن أعترف باسم ريتا، سيظل هو الاسم المشبوه في مخيلتي، لن أنسى القهر الذي كان ينضح من وجه أمي وهي تخبر الخالة أم غيث عن ريتا، السجانة التي تعمدت إذلالها في كل زيارة، ولن أنسى كرهي لهذا المقطع الشعري الذي يتغزل فيه درويش بحبيبته حتى لو كان مجرد خيال شاعر:

بين ريتا وعيوني...بندقية

والذي يعرف ريتا ينحني

ويصلي

لإله في العيون العسلية.

هل كرهت الاسم بسبب تلك المجندة الخبيثة، ربما. لا يهم، المهم أنه رغمًا عني أصبح الاسم الرسمي لطفلتي الصغيرة، كما أصبحت كثير من مدننا تترنح تحت أسماء مغتصبيها.

* * *

الزنانة وقهر آخر

بمرارة أجتر ذلك الحوار في عقلي، وأنا أجلس الآن في الخيمة المخصصة لإيواء أطفال، أصبحوا بعد رشقة واحدة من اللهب المتناثر فوق المنازل بلا عائلات، أهدهد ظهر طفل أخرجوه من تحت الأنقاض، وقلبي يكاد يتبعثر والفكرة ذاتها تنهش خلايا دماغي، ليت اسم ريتا هو أكبر أزمة مررت بها، ليتها كانت قوية لتتمسك بالحياة، ولتعش حينها بذلك الاسم كيفما شاءت، ليتها كانت جذر زيتونة شرقية أو غربية في هذا الوطن الفسيح المتسع لهم المضيّق علينا، لكنها كانت صفصافة أودت بها الريح مستعجلة، كما أودت بقدم نور ابنة العائلة التي مُسح سجلها المدني الصغير من الوجود، ولم يبق إلا سجل بقدم مبتورة. هل ما زالت في المستشفى؟ هل وفى عمها بوعده في رعايتها، أو أنها لم تحتمل فراق أهلها وساقها الغضة الصغيرة، فلحقت بهم إلى حيث تشفى الأجساد والأرواح من جراحها، هناك في عالم يفصلنا عنه خطوة واحدة، تسمى الموت؟

أنين الطفل ووجهه البريء المليء بالجروح والكدمات، ورأسه المعصوب بقميص أحد المنقذين أخرجني من أفكاري، قالوا إنهم

أذابوا نصف حبة من المسكن في ملعقة ماء، وجعلوه يتجرعه علّه يخفف من ألمه ويساعده على النوم، بضع أشرطة من الدواء الرخيص هو كل ما تبقى من علاجات بعد تعذر وصول الإمدادات الطبية، إلا نزرًا يسيرًا يصل بين حين وحين مع بعثة إغاثية، يصادر الاحتلال نصف ما جلبته بحجة الدواعي الأمنية. النوم في الخيام ليس المشكلة الحقيقية، التي تواجه هذا الكم الهائل من البشر المحشورين في هذه البقعة، صوت الزنانة الإسرائيلية كان أبشع من الخيام واشتداد الحر فيها، وكثرة زوارها من الحشرات في الليل والنهار. الصوت الذي يتعدى السمع ليصبح جزءًا من الجسد والأفكار والبكاء ومرارة الضحكات. كأنه خلفية موسيقية صاخبة، تصاحب هذه اللوحة التراجيدية التي نحياها، يخيل إليّ أن زنّها التصق بكل شيء: بأجسادنا التي يرشح العرق منها، بأحاديثنا، بمحاولات النوم الذي نتحايل على غفوات منه، بقماش الخيمة الذي أصبحت رائحته تزكم الأنوف مع اشتداد الحر، بركام المنازل المتهدمة، وبأجساد بقيت تحت الركام، وأخرى سُحبت مبتورة الأطراف أو مفقوءة العينين. الزنانة ستأتي يوم القيامة مكبلة مع مخترعها بسلاسل من نار، سيطالب كل واحد ممن سطت على تماسك عقله أن تُحرق هي ومخترعها في النار، سيكون كل هؤلاء البشر المتعبين خصومًا لها وله يوم الحساب.

في تلك الليلة تقابلت مع فرنسيس، كانت دهشتي كبيرة برؤيتها تدخل الخيمة، ولم تكن أقل مني دهشة وفرحًا، انحنت عليّ وحضنتني

وقبلتني، وجلست قبالتي تتفحص وجهي وجسدي، وتقول بلهجتها العربية المكسرة:

- عزيزتي ندى، كيف جئت إلى هنا؟

ظهور تلك المرأة الأمريكية في تلك اللحظة جعلني أشعر بالامتنان الكبير، وأيقنت أنها هبطت من السماء، فرحتي برؤيتها كأنها كل ما تبقى من عائلتي، لم يخطر قبل ذلك على عقلي أنني يمكن أن أستشعر كل هذا الفرح لرؤية فتاة أمريكية من فريق المتطوعين القادمين إلينا، كأنهم ذاهبون في نزهة، ما أكثر ما ظننت أنهم يختبرون إنسانيتهم بانخراطهم في أعمال منظمات إنسانية، يحلو لها إظهار شفقتها وتلميع صورة البلد الذي جاءت منه، لتواري قليلًا أدخنة مصانع الأسلحة التي تسربت إلى صدورهم مع الهواء، والتي كنا حقول تجاربها الرخيصة طوال هذه التي يسمونها حياة.

صوت الزّنانة لم يهدأ تلك الليلة بل ظننته قد زاد حدة، لم أجرؤ على التفكير في غفوة صغيرة، كانت حلمًا بعيد المنال لواحدة مثلي اعتادت الاستيقاظ على أنفاس زوجها، وهو يغادر السرير على أطراف أصابعه حتى لا يوقظها. طلبت فرنسيس أن تحمل الطفلة عني، ولكنني أبقيتها في حضني وأشرت بالرفض للمتطوعة الأمريكية بهزة من رأسي، الطفلة بدأت تغفو وأي حركة خفيفة قد توقظ آلامها، رغم أن يدي بدأت بالتنميل تحت جسدها، إلا أنني حاولت ألّا أتململ خشية إيقاظها، تأملت وجهها الذي لم تخف الدماء والجروح

براءته وجماله تذكرت جنين وهاشمًا، فغصصت بصورة لطفليّ تتراقص في خيالي، كلاهما: جنين وهاشم هان عليهما حزني، وتركاني بهذا القلب الذي يترنح كمدًا على فراقهما، حاولت كتم صوت نشيجي، ولكنه أفلت هاربًا، وكان فرصة لفرانسيس أن تأخذ الطفلة من حضني بهدوء، بعد أن غطت في النوم تمامًا، وضعتها على بطانية في زاوية الخيمة، ولفت طرفها لتغطي ساقيها من قرصات الذباب والبعوض.

عادت فرانسيس لتجلس بجانبي بعد أن ضممت قدميّ، وجعلتهما كرسيًّا يسند ثقل رأسي ودموعي تتساقط، فتحتُ أبوابي المقفلة وهدمتُ الجدار العازل في قلبي قبل أن تبادر بسؤالي، وغصتُ في أعماق نفسي حتى خيل إليّ أنني لم أعد أرى شيئًا من حولي سوى ذلك اليوم، وانهالت كلماتي المتعبة التي أحاول التقاطها من قاع ألمي لأرمي بها في وجه هذه المرأة الغريبة، ذات الموهبة العجيبة في الإنصات، ورحت أخبرها بصورة ذلك اليوم، ونحن نعبر الحاجز وجسدها (العجائني) اللين يلتف في قطعة قماش خاصة بالمواليد الجدد في المستشفى بعد أن رفض غسان أخذ الكوفلية، خوفًا من أن يلقي الجنود القبض عليها بتهمة الخريطة المطرزة، التي يحاول كيانهم طمسها ومحو وجودها.

عبرت جنين الحاجز في حضن غسان وهو يكتم اسمها الحقيقي في قلبه (ريتا). وكنت أسير خلفه ببطء ألفّ جسدي بسترة طويلة أحضرتها أم وسيم، لا تتناسب مع الجو الدافئ لأواخر أيار، وأصرت

أن أحمي جسدي به من تقلب الجو، ومن أشياء أخرى قالتها بحرج وهي تغمز بعينها وتهمس في أذني (دماؤك ما زالت تنزف)، باسمة أيضًا ظلت تحذرني في كل اتصال من تعرضي لتيار هوائي بعد الولادة؛ حتى لا أصاب بحمى النفاس، ولكنها لم تتخيل أنني سأمشي على قدمي بعد ولادتي بساعتين؛ لأتمكن من عبور الحاجز والعودة إلى منزلي.

التعب والألم اللذان أحسستهما بعد أن بدأ المخدر يفقد مفعوله جعلاني لا أكاد أجر قدمي بعد أن حصلت أوراقنا وأوراق الطفلة على ختم مغمّس بحبر القهر. على بعد مئة متر كانت سيارة بانتظارنا لتحملنا إلى المنزل الصغير في الحي الشرقي من الباذان. لأول مرة أتأمل الطريق بهذا التركيز، هل كان الطريق دائمًا محفوفًا بهذا السوار الأخضر من أشجار البرتقال والتين، والكثير من شجيرات الورد الجوري، لم يسترع انتباهي -قبل ذلك اليوم- جمال التعرجات في طرقات القرية كأنها أفعى تحتال على مطارديها، فتدخل يمنة ويسرة وسط الأشجار الباسقة، وكروم العنب وبيارات البرتقال وشجيرات الصبار. بقيت طوال الشهر الأول بعد الولادة أسري عن نفسي بأنه لا يمكن أن يحدث لي أسوأ من المشي عبر الحاجز بعد ولادتي مباشرة، بكل ما في جسدي من وهن النفاس ودمائه النازفة، ولكنني أدركت فيما بعد أنه يوجد دائمًا ما هو أسوأ مما نظنه الأسوأ، وهي طريقة القدر لمواساتنا، أو ربما لشحذ طاقتنا على التحمل المستمر.

العقد الذي أبرمناه بأن تتوقف رحلة الألم والحزن إلى هذا الحد -الحد الذي نظن أننا لن نتحمل بعده المزيد- كنا طرفه الوحيد. ما

المانع أن تضاف حكاية أسى جديدة إلى الحياة، أضافتها طفلتي جنين؟ على الرغم من أن الأكسجين هو الذي ظل متاحًا دون مقابل في هذه الأرض، إلا أن نصيبها منه كان قليلًا في شهقتها الأولى، واستنشاقها الأول؛ فوصل ناقصًا إلى رئتيها وقلبها ورأسها، فجاءت معلولة بأعراض الشلل الدماغي، التي بدأت تظهر بوضوح بعد شهرها الثالث.

منذ أن شخصها طبيب الأطفال الذي يزور القرية على فترات متباعدة بأعراض نقص الأكسجين، دخلت حياتي مع غسان منعطفًا كثير الصخور والنتوءات، وصارت كل نوبة ضيق تنفسٍ تعتريها، أو ازرقاق جلدها وشفتيها مناسبة لزيادة لبنة إلى الجدار الذي بدأ يرتفع بيننا، حاجبًا أحدنا عن الآخر. هذا الجدار جعل غسان يخرج عن طوره في مرات عديدة، ليصرخ بشكل هستيري أنني السبب فيما حدث لابنتنا.

- وهل كنت أعلم الغيب؟!

دافعت عن نفسي أمام لومه، كان يراعي مشاعري في المرات الأولى، ولكنه بدأ يلسعني بسوط كلماته فيما بعد، أصبح معظمها كحبة الصبار، لا أقوى على ما فيه من أشواك ناعمة، تنغرس في قلبي كلما ذكرني بأنني من أصررت على العمل في القرية مع علمي بظروف خدماتها الصعبة.

- وهل وجودنا في القرية هو السبب في مرض جنين؟ أدافع عن نفسي بسؤال أعرف مسبقًا أنه سيجعله ينفجر.

- لو تلقيت العناية اللازمة في حملك، وولدت في ظروف مريحة، لما جاءت ريتا بجسم مريض، فضلت العمل في المناطق النائية على العمل في مركز المدينة، بحجة التضحية والوطنية والشعارات المترهلة.

كانت فرانسيس تستمع إلى صوتي الخافت خوفًا من أن تستيقظ الطفلة النائمة، لا أعرف كم فهمت من كلامي، وكم أسعفتها مفردات لغتها العربية من تخيل ما أشعر به؟ ولا أعرف كيف تقبلت تقمصي لصوته وأنا أستذكر حديثه، ولكنني شعرت بعد فضفضتي لتلك الغريبة الصامتة ببعض من هدوء. هتفت بصوت خفيض: توقفت الزنانة.

كان هذا إذًا مصدر الهدوء الذي شعرت به فجأة، مدت يدها بحبة دواء أخرجتها من حقيبتها:

- تناولي هذه المنوم، سيساعدك على الاسترخاء.

رفضت عرضها السخي، وطلبت أن تحتفظ بها للمرضى والجرحى الذين يحتاجونها أكثر مني. مددت جسدي قرب الطفلة، ودهنت قليلًا من الفازلين على قدميّ علّه يطرد قرصات البعوض، ورحت في غفوة عزلتني عن الخيمة وما فيها.

* * *

إسفين

بعد انخراطي في العمل لسنوات، أدركت أن انتسابي لمؤسسة أممية أعطاني قليلًا من حرية التنقل بين المخيمات والقرى والمدن، لم أكن أحلم بدخول الكثير منها دون بطاقة (موظف في وكالة الأمم المتحدة).

لكن هذه البطاقة لم تعد ذات فاعلية كبيرة على الحواجز، ولا تمنح أصحابها تسهيلات كثيرة، لا سيما بعد توالي أحداث الانتفاضة الثانية التي اندلعت عام 2000م، بعد اتفاق الهدنة الذي عقد في شرم الشيخ بين السلطة وشارون زادتِ القبضة الأمنية، وتحول التنقل بين المدن إلى عبء كبير لا سيما في مواسم المطر والبرد، إذ يصبح ارتياد الطرق الالتفافية عبر القرى عذابًا آخر، مع وعورتها وانسداد كثير منها بفعل تجمعات الأمطار، أو انهيارات الأتربة والصخور.

يعتصر الألم قلبي كلما حومت تلك الصورة في مخيلتي، امرأة نفساء لم يمض على ولادتها أكثر من ساعتين تمشي إلى جانب زوج يحمل مولودتهما في حضنه، مرتبكًا وخائفًا من أن تختنق قطعة اللحم

الصغيرة الملتفة في البطانية الوردية، فيرفع طرفها بين لحظة ولحظة ليتحقق من سلامتها، وزوجة لا تكاد تستجمع قواها وتجتر خطاها المتعبة، وتمد يدها بالأوراق المستخرجة بعجالة من المستشفى لإثبات حالة الولادة. بطاقاتنا التعريفية التي تظهر أننا موظفان أمميان في يدي الأخرى، دعوت الله في قلبي ألّا أضطر إلى إبرازها أمام الجندي، مئات الأشخاص يمرون عبر الحواجز، والمعاملة التي يتلقونها تعتمد على أمزجة الجنود وتقلباتها، في المرات التي كنا نبرز فيها بطاقات الأونروا أمام الحواجز لم نكن نتلقى معاملة تفضيلية، بل مزيدًا من زم الشفاه ونظرات الاستهزاء والصراخ بكلمات عبرية، نفهم تمامًا أنها شتائم ونعت بالحيوانية والدونية لأبناء هذه الأرض، المصطفين في طابور طويل بانتظار صك الموافقة على بضع خطوات أخرى في أرضهم. الميزة الوحيدة لبطاقة الوكالة أنها قد تشفع أحيانًا بمرور أسرع بعدة دقائق من الآخرين، دعوت الله ألا يزيد ما أشعر به من غثيان وتقلصات في أمعائي برؤية نظراتهم المتهكمة بوقاحة مستفزة، الخارجة من قعر بئر آسن.

تجاوزوا أوراقي بملل، ونظروا إلى غسان والطفلة بقرف -كما ينظر الراعي إلى شاة جرباء يتمنى الخلاص منها بأي طرائق الموت المتاحة- وأشاروا لنا بالتحرك.

الخطوات التي كانت تفصلنا عن سيارة جارنا أسفل الشارع، شعرت أنها استغرقت كل ما تبقى لدي من طاقة خزنتها لعبور الحاجز، جررت قدميّ وأنا أمسك بطني بكلتا يدي، وصوت بكاء

يتدافع ليخرج مدويًّا ولكنني ألجمته، على الرغم من القوة التي ينعتني بها كل من يعرفني إلا أنني أنهزم تمامًا أمام آلام جسدي، قد أتحمل أصعب الكلمات وأقسى الظروف دون أن تكسرني دمعة، ولكن جرحًا بسيطًا في كفّ يدي يهزم قوتي، ويستمطر دموعي كطفلة لا تجد ملاذًا إلا البكاء.

سرت بين مجموعة ممن عبروا خلفنا، أمسكت إحدى النساء بذراعي وطلبت مني الاتكاء عليها، لم أتفوه بكلمة، ستخونني شفاهي حتى لو نطقت بحروف شكر لها، وسيتدفق خلفها عويلي المختبئ، سارت إلى جانبي وهي تلعنهم وتلعن من جاء بهم وسلمهم رقابنا.

وظلت نصائحها تنهمر طوال الطريق القصير، الذي أصبح طويلًا بقدميّ المتعبتين، وجسدي الذي أجبره على الحركة، كان غسان يتقدمنا بعد أن اطمأن أن المرأة تكفلت بمساعدتي، وسار نحو السيارة؛ ليحمي الطفلة من نسمات الهواء، وغبار تثيره الأقدام المرتجلة فوق إسفلت مليء بالحفر والأتربة.

شكرها غسان على مساعدتي، وغبت أنا عما حولي ما إن وضعت جسدي على مقعد السيارة، ورحت في غفوة، لا أعرف هل كانت غفوة حقًّا أو أنني فقدت حينها الوعي؟

أخبرني غسان بعدها أنه حسبني نائمة بسبب صوت أنفاسي المنتظم، لمته لأنه لم يحاول إيقاظي، وسألته كيف لم يخش عليّ من غيبوبة مفاجئة؟ ضحك حينها، وقال: صوت شخيرك طمأنني.

بعد أن دارت عجلة الأيام بعد ذلك اليوم أكملت جنين عامها الأول، واكتملت صورة حالة الشلل الدماغي لديها، واكتملت الفاجعة التي لم يتحملها غسان ولم يتقبلها قدرًا إلهيًّا، شيء يحدث في هذا الكون المليء بالأشياء الناقصة، والأشياء التي نسمع عنها ولا نرغب أن تحدث لنا، الأشياء التي تفجعنا فيما نحب وفيمن نحب، مضت سبعة أشهر على عودتنا إلى شقتنا في رام الله، ودخلت جنين مرحلة فحوصات التشخيص الأولية لحالتها. وكلما اجتزنا فحصًا متأملين أن تكون نتيجته لا تتمتع بالدقة العالية، كذبتنا أطرافها المرتخية وذراعاها الضعيفتان، وتشنجاتها المستمرة ومقاومة جسدها الطري لمحاولاتي في تعليمها الجلوس كما يفعل الأطفال في سنها، فأبكي وحيدة، وأبكي وهو خارج المنزل، وأبكي وهو منشغل بشيء ما بعد أن كنت قبل ولادة جنين لا أهدر دموعي إلا بوجوده؛ حتى أرى تلك النظرة الحنون في عينيه، وأضحك على أيّ دعابة يفتعلها؛ ليبدد أسباب حزني.

ذلك الشعور برغبتي في كتمان ألمي عنه كان إسفينًا بمعنى حروف الكلمة، وتدًا مثلثًا حادًّا يفصل بين جسمين وروحين. هل تبقى قيمة الحب راجحة في الميزان عندما نضطر إلى ابتلاع غصتنا وكتم لوعة تحرق أكبادنا. هذه المرة الشعور مختلف عن كل مرة تظاهرت بأنني بخير كي لا أرهقه أو أتعبه بي، هذه المرة أعاقبه بكتمان حزني عنه، أصفعه بحرمانه من مشاركتي ما أحسه وأعيشه. قاسية أنا كما أعرفني دائمًا، ولكنها قسوة القوقعة تحمي هشاشة أعماقها، وقسوة

درع السلحفاة يخفي ضعف جسدها، ويمكّنها من الاختباء عن العالم، حتى لو كان اختباء النعامة، فذلك جبن يريح النفس أحيانًا، ويجنبها المواجهة التي تخافها.

قبل تعرض جنين لآخر وعكة كان الإسفين ينغرس وينخلع حسب حالتنا النفسية، لكن عند ازرقاق شفتيها في ذلك اليوم، وتعرضها لنوبة صعوبة التقاط الأكسجين من الهواء، كما كان صعبًا الاكتفاء منه في رحمي، سألني الطبيب عن اسمها: قلت على الفور: جنين. سجل الاسم في ورقة الكشف واستخرجها من الجهاز، حينها صرخ غسان بهستيريا:

- اسمها ريتا.

لم يكمل الطبيب إجراءات علاجها إلا بعد أن استخرج نموذجًا جديدًا لريتا. لم يستغرق الأمر إلا ثلاث دقائق، لكن غسان اعتبرها الدقائق التي أودت بحياتها، وسببت الـتأخر في إنقاذها، بل قتلها كما قال في سورة غضب عصفت بنا قبل أن يقرر أنني من أخطاء حياته.

كما حملها يوم مولدها عابرًا بها الحاجز قطعة عجين لينة، كانت في حضنه اليوم بجسد طري مستسلم تمامًا، بعد أن أعلن الطبيب في مستشفى رام الله الحكومي استسلام قلبها الصغير.

طاقتي على احتمال فكرة أنني سبب في تأخير علاجها كما قال غسان خذلتني تمامًا، لم يكن حزني على رحيلها فقط؛ فالحزن الذي

يأتي بعد فقدان ميت حزن خجل سرعان ما ينزوي في أعماقنا لا يخرج إلا في لحظات وحدتنا، أما الحزن الذي يأتي بعد خذلان وخيبة ورحيل من نحب فهو حزن يُذل صاحبه ويذيقه ألم تناقض المشاعر، بين عزة نفس تدوم قليلًا وتنقطع، ليحل محلها إحساس مؤلم بالحسرة والأسى، وقرع سؤال مدوّ: لماذا؟

ماذا في هذه الخيمة لا يذكرني بغسان الثائر على واقع لا نملك في تغييره شيئًا، الممتلئ بطموح لم أتبينه في بداية علاقتنا؟ طموح من النوع الذي يستدعي تسلقًا وقفزًا فوق درجات السلم، ماذا في هذه الخيمة لا يمعن في فتق جروح قلبي على فقدان طفلتي، وأنا منذ أن وصلت خان يونس مع مجموعة النازحين منذ أسبوع أستقبل فيها كل يوم طفلًا أو أكثر ممن سحبوا أجسادهم الغضة من قعر أنقاض منزل هنا أو هناك، دون أن يعثروا على أحد من عائلاتهم؟

أخبرني شبان يعملون مع إحدى منظمات الإغاثة أنهم يستطيعون تأميني بغرفة إذا رغبت، ولكنه لم يخفوا تخوفهم من حدوث قصف في أي مكان؛ فالطائرات لا تراعي أحدًا، الخيمة -على بؤسها- تبقى أكثر أمانًا من الأبنية. لكنني كنت أعتقد في داخلي أنه لا شيء آمن على هذه الأرض، فما دام هذا العدو يرانا خطرًا وجوديًّا على وجوده، فلن يتوانى عن فعل أيّ شيء لإنهاء تهديدنا له، ستكون إبادتنا عن بكرة أبينا غايته التي تتفلت من بين تصريحات وزرائه ومسؤوليه، بهذه البساطة يعرف الفلسطيني أنه مشروع شهيد في أيّ لحظة؛ لأن حقّه في الحياة يقلق الكثيرين.

إحدى الأفكار الغبية التي راودتني أنني أريد أن أعاقب غسان ببقائي في الخيمة، تخيلت لو أنه يراني الآن في هذه الحالة كم سيتألم قلبه، كم سيرتبك وهو يدافع إشفاقه عليّ، ولا يظهر تعاطفه معي حتى لا يكسر كبرياءه، كبرياء الرجل الذي خسر من يحبّ بكامل إرادته، واستسلم للحظات العناد التي تصاحب أيّ خصام، لحظات أودت بحياتنا معًا؛ لأننا لم نكن في علاقة طبيعية تحتمل النزاع والخصام، كانت أشبه بالعلاقة الأثيرية فيها عالم لذيذ من الأفكار الهلامية، شبيهة بتلك التي يرسمها الشعراء في أشعارهم، تطير بأجنحة من أحلامنا وخيالاتنا وما قرأناه في الكتب وما كتبناه في صفحاتنا، لم تثبت كل هذه الشاعرية الفكرية أمام ما عشناه، منذ أقنعته بالعمل في قرية الباذان، ومنذ أقنعته بمواصلة العيش فيها بعد حملي مفتونة بجمال طبيعتها، ورقة نسيمها وطيبة أهلها، ومنذ عاندته وألقيت مخاوفه عرض الحائط، عندما قال: إننا يجب أن نعود إلى رام الله قبل دخول حملي الأشهر الأخيرة. وعندما حدث ما حدث لابنتا جنين ألقى بحمولة ألمه كاملة عليّ، جلدني بسوط اللوم، واتهمني أن بحثي عن أدوار البطولة قتلها. هكذا يا ندى بقيتِ وحيدة بعد أن رفضت العودة معه منذ أول شرارة أنبأت بأن أبواب الجحيم انفتحت على غزة ومن فيها. غير أن فكرة الانتقام منه داعبت جراح قلبي، لو أن صورتي في هذه الخيمة تصل إليه، كم سيتألم؟ حتمًا سيأكل القهر روحه لو رآني بلا جدار خلفي، وحده غسان من كان يعرف كم كنت أحب الاستناد إلى الجدران؛ فثباتها في الأرض ينقذني من خوفي، تمامًا كما كان يفعل استنادي إلى كتفه.

سألتني فرنسيس الليلة عن إصراري للمجيء إلى غزة، وأظنها أرجأت سؤالها الآخر إلى وقت آخر، لماذا بقيت ولم أخرج مع زوجي؟ قالت إنها كشأن أي متطوعة أمريكية تعرف أنها في حالة من الحماية لو وقع ما يهدد حياتها، لكن أنا.. توقفت، ولم تكمل. أعرف تمامًا أننا في نظر العالم لسنا في كفتي ميزان متعادلتين، في نظر دول التحضر والأخلاق والعولمة، تتفوق فرنسيس وأمثالها عليّ في كونها إنسانًا يستحق أن يعيش، أما أنا... أما نحن فموتنا راحة للكثيرين.

أعادني سؤالها إلى ذلك اليوم، اليوم الذي وقعت فيه على عقد العمل المؤقت، المحدد بعام يتجدد تلقائيًّا ما دامت المهمة لم تنته، تلخصت المهمة في عمل دراسة عن واقع التعليم في مدارس وكالة الأمم المتحدة في غزة، والإشراف على لجان تعديل المناهج، والقيام بتدريب الكوادر المحلية على مهارات الاتصال الحديثة باللغة الإنجليزية. الحصار الذي فرض على غزة منذ أعوام صعّب مهمة عقد دورات خارجية، أو إرسال وفود بشكل دوري مما جعل عمل الوكالة هناك يتراجع بشكل كبير، وقعت دون تفكير عميق، كانت بعض الأمور محسومة لديّ حتى قبل أن أتزوج غسان، روحي الثائرة، وشغفي بالتجارب الجديدة، وشعوري أن كل ذرة تراب من هذه الأرض تعنيني، كل بقعة من هذه الخريطة التي أعلقها صغيرة في سلسلة عنقي، هي أرضي وملكي وكوني الكبير المغتصب، والمتخم بالقهر.

قلت لفرنسيس إن غسان كان يتذمر عندما أتمادى في مشاعري تلك، حتى إنه أسماها بالنرجسية الوطنية. كان أكثر ما يثيره استرسالي

في حواراتنا بحالة (النرجسية الوطنية)، وكان يصد دفاعي عن تلك الحالة بقوله: (لا تحلقي كثيرًا في السماء يا (ندوش)، ثبتي قدميك على الأرض يا حبيبتي، حتى لا تميد بك أفكارك الشاعرية، عن أي قهر تتحدثين؟ الأرض مقهورة؟ الأرض جماد لا تتكلم ولا تشعر، ستقولين إنك تقصدين سكانها وأهلها. أين هم؟ هاتي مقهورًا واحدًا منهم أراه بعيني. هؤلاء المتنعمون بالسيارات الفارهة والمنازل الفخمة، والسهرات والحفلات، أم أولئك الذين باعوا أراضيهم للشركات اليهودية لبناء مصانعها؟

في بادئ الأمر واجهته بالدعابة؛ لأنني ظننت خُطانا متناغمة في الحياة، أقول له مبتسمة: كلامك رجس من عمل الشيطان، ليس كل الفلسطينيين جاركم الذي باع أرضه لمستثمر بولندي. فيجيبني محتدًّا: بل رجس من عمل الإنسان، الوطنية التي تظنينها مستشرية في نفوس الناس قاربت على الجفاف، الوطنية قتلتها الانقسامات والاختلافات، رغبة الناس في العيش دون معاناة جعلت الوطن آخر حساباتهم.

كان هذا الكلام كفيلًا بجعلي أتردد كثيرًا قبل الارتباط بقائله، لو سمعته قبل أن ينعقد اسمانا أحدهما بالآخر، وقبل أن أعيش حالة الانبهار الأولى باسمه أولًا (غسان كنفاني) ثم بأشعاره، كيف استطعت تجاوز نفوري من الشعر الممعن في التحرر من القافية والوزن، لأحب أشعاره الغزلية؟ وكيف تملكتني فكرة أني زوجة الشاعر الذي كان مغمورًا، وسطع نجمه بعد قصيدة حماسية ملتهبة بالوطنية منددة باقتحام جماعة (الهيكل) لساحات المسجد الأقصى؟ ولا أذكر أنني

كرهت شيئًا فيه بعد وفاة جنين كما كرهت قدرته على كتابة الشعر، أدركت فجأة أنني لا أحب أشعاره الخالية من الوزن والروي والقافية، أدركت أنني أكره فيه هذه القدرة على نثرية الشعور، بعد أن نشرت له إحدى الصحف قصيدة أودعها إسفينًا آخر بيننا، لم تلتقط عيني منها إلا ما جعلني أتدثر بدموعي، ونزف جرحي الذي عبثت فيه كلماته، وعبث فيه بوضع ذلك الاسم الذي أكرهه (ريتا). إنه جزء من عقابه لي، هذا الاسم الذي يعرف أني لم أتقبله، واستبدلت به منذ البداية اسم (جنين)، يعرف غسان كيف يقرص قلبي.

أثقل الأكفان أصغرها
وقلب ريتا داخل الكفن
فراشة صادتها مخالب الليل
وأودعتها غياهب الظلمة.
كيف يغتال الندى وجه الفراشات
ضحكة الوردة المنبثقة عبر الحواجز
كيف أنسى وجه ريتا.

كانت كل كلمة فيها طعنة في عمق قلبي، كلماته نبشت ذلك الكفن الصغير الذي واريته بمن فيه التراب، سألت فرنسيس:

- هل حقًّا أثقل الأكفان أصغرها، يا فرنسيس؟ هل كرهني غسان إلى هذا الحد الذي يجعله بهذا اللؤم؟ تنهدت فرانسيس وظهرت نظرات أسى مختبئة في عينيها، وقالت:

- كلٌّ يفلسف الأمور من منظوره ورؤيته، ولكن عليك أن تحاولي النسيان قليلًا إلى أن تتغير الظروف، سمعت أخبارًا عن هدنة قريبة.

حديثها عن الهدنة وسط كل ما بحت به على سمعها جعلني أشعر بالندم الذي يعقب البوح، ابتلعت صمتي وخرجنا لإتمام مهمتنا في تسليم بعض المعونات، التي وصلت عبر المعبر بعد أن قضينا ساعات في فرز المواد، ضحكت بمرارة وأنا أتفحص علبًا تحتوي (نكاشات أسنان)، قلت بغيظ للشاب الذي سلمنا الصناديق:

- ليرسلوا الطعام أولًا قبل أعواد تنظيف الأسنان.

يبتسم بتعب واضح في ملامحه، السواد الذي يغلف ما حول عينيه بدائرة ينبئ عن حظ قليل من النوم. وكيف ينام هؤلاء، وهم يسارعون لتفقد البيوت المقصوفة لإنقاذ ما علق من أرواح بهذه الحياة، ويظلون طوال الوقت على أهبة فاجعة جديدة؟

حمزة من الشباب المتطوعين في خان يونس لنصب الخيام للنازحين، وتقديم المساعدات الممكنة ونقل الأطفال المصابين إلى ما تبقى من مستشفيات ميدانية، أو إرسالهم إلى خيم العناية التي تتكفل بمن حالاتهم مستقرة. عندما خرجت من الحي الذي دمرته المدفعيات، وحولته إلى مشهد من فيلم هوليودي كان من الأشخاص الذين ساعدوني، وبعد أن عرف اسمي وطبيعة عملي في غزة أخبرني أنه كان يبحث عني، وأنه سعيد لأنه عثر عليّ، وطلب مني ألا أتردد في طلب أي مساعدة منه، وسجل رقم هاتفه في سجل هاتفي للضرورة.

انتهيت مع مجموعة المتطوعات من فرز المواد الإغاثية التي وصلت في الشحنة الأخيرة، منهن أجنبيات ومنهن نازحات من أحياء غزة الشمالية، وبعضهن من نساء خان يونس. كنا نبحث عن أدوية أو ضمادات أو أيّ شيء يمكن للأطباء الاستفادة منه في إسعاف الجرحى وإنقاذ أرواحهم، عثرنا على خمس علب من لصقات الجروح، شعرت بحنق في داخلي، العالم من حولنا يظن أننا نعاني من جروح تضمدها اللصقات، هل هم مغيبون عما يحدث هنا، أو أن أيدي جنود الاحتلال عبثت تفتيشًا في محتويات الشاحنة، وأخرجت منها كل ما يمكنه أن يسعف نزف الجرحى، ويوقف الدماء التي اعتدنا رؤيتها متناثرة في أروقة المستشفيات الميدانية، ويخفف لسع الحروق في الأجساد التي تعرضت لنيران الشظايا؟

المخيم الذي أسكن إحدى خيامه مكون من مئة خيمة، تمتد كأنها حقل مزروع بهذه الأكواخ الصغيرة التي يغلف معظمها قماش الشادر المقلم، ومن لم يسعف خيمته الحظ بحصولها عليه كانت البطانيات تقوم بالمهمة، وتتحول من أغطية إلى جدران تمنح من بداخلها ذلك النزر من الخصوصية، حتى ولو كانت خصوصية شبيهة بما يمنحه بيت العنكبوت لساكنيه.

من السخف أن أكتب الآن عن الخصوصية، وعين مثبتة في زاوية الجدار تراقبني ليل نهار، تحصي أنفاسي وتراقب ما تتوقعه وطال انتظارها له، من انهياري وصراخي وذلي، ورائحة كريهة تنبعث من

حولي، بعد أن فاضت الفوهة التي تشاركني مكاني الجديد بما فيها، ورشقت المكان بقذائف من نوع آخر تنبعث من السائل الأسود النتن الذي ارتفع منسوبه فجأة وطفح على الأرضية، الرائحة الكريهة أعادت لي ذاكرة تلك الأيام في مخيم النزوح، عندما انفجرت أنابيب الصرف الصحي في خان يونس بفعل إحدى القذائف. كان قادة العدو يتحدثون عن ضرب الحاضنة الشعبية، أدركت أن كل شيء في حياتنا هو من الحاضنة التي يريدون قصفها وتدميرها، المدارس، والمستشفيات، والمساجد، والكنائس، والحدائق، والمراكز الثقافية، المنازل وما حولها من مساحات خضراء، حتى شبكة الصرف الصحي -التي تعبر بشكل ما عن تنظيم المدن- لم تسلم من تعريفهم للحاضنات الشعبية.

بين غسان وغسان

حالة الحزن التي خيمت على حياتي مع غسان كنفاني لم تكن حالة حزن عابرة، أدركت ذلك بعد فوات الأوان، وبعد أن تراكمت عيوب كل منا داخل الآخر، دون أن يجرؤ أحدنا على المواجهة الحقيقية. أخفى الحب كل العيوب، ولكنه لم يستطع إجبارنا على التقبل الكامل، أو التصالح الصادق معها، أخفاها كما أخفت خادمة المنزل بقايا الغبار والأتربة تحت حافة السجاد في أحد الأفلام، فيلتصق كل مرة بنسيج الخيوط، ويتداخل معها مكونًا طبقة عفنة يحتاج تنظيفها إلى جهد كبير، أو قد تضحي صاحبة المنزل حينها بالسجادة التي لم تعد صالحة لتدوسها الأقدام.

لم أشأ التضحية بعلاقتنا تحت وقع أي مشكلة، وكذلك كان هو بادئ الأمر، تشبثت بمحاولة ربط الخيوط التي قطعت بعد فقدان طفلتنا، ولكنني كنت أربطها على طريقتي، واختار هو أن يكون دوره في ردم الهوة التي حفرت رغمًا عنا أن يوافقني ويجاريني، ويكتم كل اعتراضاته على قراري الجديد. الدواء الذي نصحني به صديقه الطبيب النفسي سبب من أسباب حالة التسليم التي عاشها غسان حينها.

عندما أخبرته برغبتي في الخروج من رام الله مؤقتًا، انفرجت أساريره ولمعت عيناه، وأجابني باندفاع:

- نذهب إلى كندا، نعيش هناك وتأخذين الإقامة، وبعدها تحصلين على الجنسية، ومعارف والدتي هناك سيقدمون المساعدة و...

لم أتركه ليسهب حتى أوفر عليه مشاعر الخيبة، عندما يعلم أنني لا أريد الذهاب إلى كندا، ولا أريد الخروج من جغرافيتي، ولكنني لا أجرؤ الآن، وكلانا يعاني ليمد جسر التعافي لما انكسر بيننا، لا أجرؤ أن أتحدث حديث الجغرافيا التي تسكنني، ولا حديث الوطن الذي لا أريد الخروج منه، ولا حديث التشبث والبقاء.

حاولت حينها أن ألقي الخبر على مسامعه دون النظر في وجهه، أشغلت نفسي بتنظيف حوض السمك الصغير الذي جلبه بعد عودتنا إلى رام الله، وقلت متصنعة عدم الاكتراث:

- الوكالة سترسل موظفي مراقبة إلى غزة لمدة عام أو عامين لمتابعة مدارسها هناك، والقيام ببعض الإحصائيات والدراسات، الإعلان موجود على موقعهم الإلكتروني.

تسمرت يده التي كانت تنفث دخان السجائر قرب النافذة، بعد أن أصبح صداع رأسه ذريعة (لمجّ) سيجارة كل يوم، فأخذ نفسًا عميقًا وأرسله داخل الصالة، مبعدًا رأسه عن النافذة، وقال بصوت تصنّع فيه عدم الاكتراث تمامًا مثلما فعلت:

- غزة محاصرة، ولا يمكن دخولها إلا بمعجزة.

حاولت التبسم، وأنا أقول:

- المعجزة يبدو أنها حدثت، واستطردت لأنتشله من العودة إلى ذكرى ذلك اليوم، عندما قلت له (المعجزات ما زالت تحدث) حين فتح الحاجز، واجتزناه سيرًا في الذهاب والعودة:

- الوكالة حصلت بالفعل على تسهيلات بإدخال عدد محدود من موظفيها إلى غزة عن طريق المقر الرئيس، مؤكد هناك مصلحة لأولاد الـ.....فهم لا يتساهلون لله.

- وما مصلحتنا نحن أن نذهب إلى غزة في هذه الظروف؟

قالها بهدوء أعرف كم هو مصطنع، ويخبئ وراءه غضبًا مختزنًا.

ليته غضب حينها أو اعترض، بحجم الرفض الذي أعرف أنه يخبئه في داخله، من أجل الحفاظ على تلك الخيوط وردم تلك الهوة.

الهدوء في مواقف تتوقع فيها احتدام الصراع تأزيم جديد، يجبرك على إرجاء قول كثير مما تريد قوله وتخزينه مرة أخرى، وهنا تكمن الخطورة، خطورة أنه سيأخذ فرصة ليتخمر أكثر في داخلنا، ويتفاعل مع القديم والجديد مما نتعارك معه داخليًّا.

عندما يفيض المخزون المختبئ في النفس سينفجر مرة واحدة بلا قدرة على ردعه، وبلا فرصة لتزويقه وتنميقه.

أجبته بهدوء لا يتفوق على هدوئه بسبب ما يدور في نفسي.

- أولًا: المكافأة مجزية، وستمكننا من إقامة مشروعنا الذي نحلم به، والمدة قليلة ستمر مثل البرق، وأنا متعبة نفسيًّا وأحتاج أن أبتعد قليلًا، و... أيضًا... وأيضًا سنساهم في خدمة أهل غزة ومساعدتهم، وهي في النهاية جزء من جغرافيتنا الفلسطينية، ولها علينا حقّ....

كنت أتعثر بكلماتي فتخرج ركيكة وغير مقنعة، وأنا أهرب من الجملة التي تريد أن تفلت، وأمعن في قمعها، احتدت نظراته، واحمر وجهه الذي بدأت علامات الانفعال تظهر عليه بسبب ما أنا فيه من ارتباك، لكنه يمتلك قدرة على ضبط ميزان كلماته - إذا شاء - أفضل مني، فأسعفته قدرته تلك على أن يقول بصوت ثابت لا انفعال فيه:

- لا تريدين الذهاب إلى كندا التي أحمل جنسيتها، ولكنك تريدين المغامرة بدخول غزة مع بعثة أممية لا نعلم مصداقيتهم وأهدافهم في اقتحام الحصار المفروض عليها منذ أعوام!!

أردت أن أتكلم، ولكنه تابع حديثه:

- ندى، أرجوك ساعديني على أن أفهمك، ساعديني على أن أسير معك على ذات الطريق، هل فعلًا تعين ما تقولين؟

ساعدته دموعي التي لم أستطع ردعها في هذا الموقف، أن يعرف بعض ما أخفيه عنه، ومحاولاتي ألّا أبدو مهزوزة أمام نظرات اللوم،

التي يكابد في إخفائها فينجح حينًا ويفشل حينًا آخر، أردت أن أبدو قوية ومتماسكة؛ حتى لا نتقهقر إلى الوراء حيث تقبع مشاعر الأسى التي لفتنا بعد وفاة جنين.

قلت وأنا أشعر بطعمها المالح في فمي، دموعي التي لا أعرف هل تنزح من داخل قلبي إلى عيني، أو أن عينيّ باتتا مخزنًا آخر للألم:

- لا أريد البقاء هنا، كل شيء يذكرني بها، كل شيء كل شيء، يا غسان.

صمته شجعني لتفريغ بعض ما تماديت في ستره، وفضحته دموعي:

- كل ما في رام الله يذكرني بجنين، أو ريتا كما تشاء لم يعد مهمًّا الآن. لقد ماتت يا غسان ماتت مختنقة لنقص الأكسجين، كيف أخرج صورة وجهها المختنق من مخيلتي؟ بالله قل كيف؟ لم أهنا بكلمة ماما، ولم تسعد هي بيوم واحد دون تشنجات ونوبات ضيق النفس، ولم تتوقف عيناك عن لومي حتى وإن توقف لسانك.

أجابني وهو يمسح بكفّه رأسي وكتفي، ورائحة السيجارة الملتصقة بملابسه تشعرني بالتقزز:

- لذلك أقول لك دعينا نذهب إلى كندا؛ لنخرج من هذه البيئة التي تحاصرك وتحاصرني، لا أدري هل فعلًا نظراتي كما تقولين، ولكنني كاذب إذا قلت إنني بخير، دعينا نذهب ونعالج هذا الجرح

بالبعد، أنا أحمل الجنسية الكندية، الشيء الوحيد الذي تركته لي أمي، وشهادة القانون، الشيء الوحيد الذي قدمه لي أبي.

- لا أريد الهروب من هذه الجغرافيا.

واجهته بنبرة جعلته يجفل قليلًا، وأعادت تدفق الدم إلى وجهه، ولم يتمالك نفسه وهو يقول:

- الجغرافيا مرة أخرى يا ندى؟ ماذا فعلت لك الجغرافيا التي تتمسكين بها إلى هذا الحد؟ الجغرافيا ليست تحت طوعك، هي محكومة لغيرك، تنغلق رحابتها في وجهك ووجهي ووجه كل من يعيش على كلمات التنظير للبطولة والوطن والثبات.

مشكلتك أنك تظنين أني غسان كنفاني فعلًا؟ ذلك كاتب صار بطلًا؛ لأنه امتلك موهبة جعلته يعزف على وتر الأدبية، فأصبح لك وللكثيرين أمثالك كائنًا أيقونيًّا، وهو يعيش خارج الجغرافيا وخارج الوطن، ولم يكتو مثلي ومثلك بلعنة أن تعيش في أرضك، مذعنًا للص حقير قدم من شتات الأرض ليعبث في حياتك ومستقبلك ويتحكم بأنفاسك. وأنا لست هو يا ندى لست الكنفاني الأديب، لست الكنفاني الذي فجروا سيارته، هذا الاسم المركب طاردتني امتيازاته طوال حياتي، أنا إنسان عادي أريد أن أحيا بسلام مع من أحب.

أريد أن أعيش دون أن يطالبني أحد بأن أكون بطلًا، أنا مجرد هاو للشعر، وقد أكتب بعضه أحيانًا عن الوطن والوطنية، وأحيانًا

تبحثين عن الوطن في أشعاري فلا تجدينه، أنا لست من كتب تلك القصص الحالمة عن معاني الغربة والضياع والحزن الذي لم يذقه أحد، والوطن الذي بيع وبرتقال يافا المنهوب. الشيء الوحيد الذي أحفظه لغسان الأديب وأوافقه عليه تمامًا أن (كلام الجرائد لا ينفع، وأن الذين يكتبون في الجرائد يجلسون في مقاعد مريحة وغرف واسعة، ثم يكتبون عن فلسطين، وهم لم يسمعوا صوت طلقة واحدة في حياتهم).

أدركت أنني دست على حافة لغم يعتمل في داخله، ولكنني أعترف أن لديّ أفكارًا لا تشبه أفكاره، ويختلف منطقها تمامًا عن منطقه كاختلافنا حول اسم جنين وريتا.

حاولت امتصاص سورة انفعاله باللجوء إلى أسلوب الردع الأنثوي، الذي ألجأ إليه أحيانًا كثيرة:

- لا تأخذ كلامي بحذافيره، أنت تعرف ما أقصد.

ضحك يومها تلك الضحكة التي نطلقها عندما تصاب مشاعرنا بانكسار، وقال وهو يعود إلى النافذة المفتوحة ليشعل سيجارة جديدة:

- حتى إنك لم تنتبهي أنني قلت إنني أريد أن أعيش مع من أحب. لم تلفت نظرك كلمة الحب التي قلتها، هكذا أصبحت يا ندى لا تلتفتين إلى ما يقربنا، وتصرين على خوض معارك جانبية، كلما حاولت تجاوز كل شيء، مددت رجلًا لعرقلتي.

أردت أن أدافع عن التهمة الجديدة، ولكنه لم يمهلني لألملم أفكاري، وباغتني وهو ينفث دخانه في الهواء:

- أنا موافق، دعينا نذهب إلى غزة إذا كان هذا يريحك، ولكن بشرط.

تساءلت نظراتي عن شرطه، بينما ظلت شفاهي مطبقة على بقايا الطعم المالح.

- شرطي أن نمكث عامًا واحدًا في غزة، ثم نذهب إلى كندا، ربما ستعجبك الحياة هناك، وستكون بابًا جديدًا لك لممارسة نشاطاتك الوطنية والثقافية.

الجدية التي قال بها عبارته الأخيرة، لم تمكنّي من تخمين ما إذا كان يستهزئ أم لا، ولم يكن الموقف مناسبًا لفتح حوار جديد حول ذلك، فلجأت إلى الصمت ولم أعلق على كلامه.

فرك سيجارته في المنفضة الزجاجية وخرج من المنزل، وترك الباب ينصفق خلفه تاركًا رائحة التبغ التي أكرهها تملأ أنفي.

*

غزة للمرة الأولى

كان شهر حزيران من عام 2023م يلقي نظرة وداع على روزنامة شهور العام، عندما وقفنا على معبر بيت حانون أو ما يسمونه بالعبرية (معبر إيرز) الذي يقع في أقصى شمال قطاع غزة، كنا مجموعة صغيرة من موظفي الأونروا، يحمل كل منا حقيبته الشخصية على ظهره، وبيده أوراقه الثبوتية ننتظر الطابور القصير على معبر كان حلقة وصل بين غزة والضفة، بل بينها وبين العالم الذي نسي سكانه هذه البقعة الصغيرة، القابعة تحت الحصار منذ سبعة عشر عامًا.

مجموعتنا مكونة من ثلاثة أشخاص آخرين عرفت منهم المرأة ذات الشعر الأشقر والوجه المليء بالنمش التي أعرف أنها في نهاية عقدها الخامس، فرنسيس المتطوعة الأمريكية التي قدمت مع بعثة منظمة اوكسفام وانضمت إلى بعض الأعمال التطوعية للأونروا، نظرات الجنود إليها تمتلئ باستنكار ظاهر، ولكن أيًّا منهم لا يجرؤ على تقليل التهذيب معها، بعكس حدتهم في سؤالنا عن وجهتنا وبقية

المعلومات الراتبة، تفحصوا أوراقنا ثم مرروا أجهزة الكشف عن المعادن عبر أجسادنا.

الطابور الذي كنا جزءًا منه، معظمهم كبار في السن، ممن خرجوا للعلاج في مستشفيات الضفة، أما الآخران فكانا بملامح آسيوية، أحدهما من أذربيجان والآخر من إندونيسيا، يعملان صحفيين مع إحدى منظمات الإغاثة العالمية في أستراليا.

(خلدون) الشاب الغزي الذي يعمل سائقًا في الوكالة، تواصل معنا عدة مرات منذ الصباح، كان في استقبالنا على الجانب الآخر، يرفع لوحة صغيرة عليها شعار المنظمة الأممية التي ننتسب إليها، وكلما اقتربنا بخطواتنا منه شعرت بقفصي الصدري يعجز عن الإمساك بقلبي بين جدرانه. ربما سمع غسان دقات قلبي التي كانت تركض بسرعة، فأمسك بيدي وشدّ على كفي، ولكنني خلت أنني سمعت ضربات مطرقة كبيرة بين أضلاعه.

جمعنا ذات الشعور لحظة دخولنا غزة، هذا ما كنت واثقة منه، لا يمكن لفلسطيني مثله ألا يشعر برهبة المكان الذي نسمع عنه في الأخبار، ونرى صوره البائسة الحزينة بفعل ظروف كثيرة عزلته عن بقية مدن الخريطة الفلسطينية. كنت أسترق النظر إليه بين لحظة وأخرى، فأراه يبتلع ريقه وعيناه تبرقان بلمعان شديد، رأيته مرارًا في كل مرة كان يقرأ فيها أشعار درويش، الفكرة التي خطرت لي حينها جعلتني أمنع ابتسامتي، نظرت إليه مليًّا وهو يضع حقيبتينا في مؤخرة الحافلة الأممية الصغيرة.

هل كان زوجي غسان طوال الوقت وطنيًّا على طريقة محمود درويش؟، هل يمر باسم الوطن في خلواته مع نفسه، كما يمر سائح دمشقي بأرض الأندلس؟

ابتسمت من الفكرة التي نثرتها في عقلي بعد أن كانت شعرًا منثورًا.

المرور في شوارع غزة جعلني أذهل عن متابعة تخميناتي حول غسان، الحافلة تسير بسرعة معتدلة ميممة نحو غزة البلد باتجاه حي الرمال، تحمل خمسة من موظفي وكالة الأونروا، جلس غسان إلى جانب السائق، وجلست المرأة الأمريكية الشقراء إلى جانبي، فيما تقاسم الآسيويان المقعد الخلفي. قال خلدون إن الوكالة تستأجر فيه مبنى مكونًا من ثلاثة طوابق لموظفيها والزائرين من متطوعي المنظمات العالمية، ولم يخف وجهه ضحكة خفيفة وهو يغمز بطرف عينه قائلًا: (لا بد أنكم مدعومون من الجهات العليا؛ حتى يسمحوا لكم بالإقامة في سكن الوكالة في الرمال).

لم أفهم حينها قصده من كلمة (مدعومون)، ولم يدر في خلدي حينها أن الوكالة تولينا عناية استثنائية، فلم نكن سوى موظفين عاديين من زمرة موظفيها، ولكن بعد مرور عدة أشهر في غزة، عرفت أن المعاملة المميزة التي تلقيناها كانت بتوصية من مدير الوكالة في رام الله شخصيًّا، ولم تكن التوصية تتعلق بي، بل بغسان كنفاني الذي يحمل الجنسية الكندية، اكتشفت حينها أن زوجي يعمل في كوادر المنظمة الأممية مستخدمًا جنسيته الأجنبية التي منحته بعض المزايا، كهذه

الميزة التي يقدمونها لنا في الإقامة في واحد من أحياء غزة النابضة بالحياة؛ حي الرمال.

التهمت الحافلة شارع صلاح الدين الذي يمتد من معبر بيت حانون أو (معبر إيرز)، حتى وصلت الواجهة البحرية لمدينة غزة مرورًا بشارع عمر المختار، تزامن مرورنا مع كلمات أغنية تتردد من مسجل السيارة:

غزة ع ابواب البحر يابا بتردد الزغاريد
عالأوف ويابو الميجنا
غزتنا هيها مزينة

أخبرنا خلدون أن هذا الشارع هو بداية غزة البلد، ولم أحتج إلى توضيح لأفهم قصده بكلمة (البلد)، فهو وصف يدل على الأماكن الشعبية، التي تعج بمظاهر الحياة الاقتصادية وتحركات السكان ونشاطهم اليومي، وتحمل عراقة المكان وأصالة التراث. ألصقت وجهي بالنافذة أراقب ازدحام الشارع بالسيارات والمارة، والمباني تصطف بترتيب لافت على جانبي الميدان الواسع للشارع، وكلما تقدمت بنا الحافلة تكشف المكان عن حياة صاخبة، وارتفاع أصوات الباعة وسائقي سيارات الأجرة، والنظام والترتيب الذي بدت عليه هندسة الطريق، زاد صخب الناس من جماله وحيويته، لا سيما عند عبورنا السوق الشعبي الزاخر بمحالّ التراث الفلسطيني والأكلات الشعبية، وسوق الذهب. كان خلدون منهمكًا بشرح معالم الطريق،

يرد على بعض أسئلة غسان عن المكان، وكنت منشغلة حينها بعصافير بطني التي بدأت تطلق تغريدات الجوع، لا سيما ونحن نمر بمطاعم الفلافل والشاورما والفتة الغزاوية. ولم يفوت خلدون فرصة المرور بالشارع، فاقترح علينا الاستراحة قليلًا وتناول وجبة خفيفة، وقبل أن يتفوه غسان بكلمة سبقته إلى قبول الدعوة خوفًا من اعتراضه.

جلسنا إلى طاولة صغيرة في زاوية مطعم شعبي اسمه (دحدح)، واستغربنا إطلاق اسم حلوى الدحدح الفلسطينية المشهورة على مطعم يبيع الفتة الغزاوية والرمانية والسماقية والفقاعية. قال خلدون: إن اسم المطعم لا علاقة له بما يقدمه، وضحك وهو يقول:

- الكل يعرف أن مطعم دحدح لا يبيع الدحدح. سألتني المرأة الشقراء فرنسيس، فيما إذا كنت قد تذوقت طعامًا غزيًّا من قبل، كنت في حالة من الإرهاق والتعب لم تسمح لي بإخبارها أن الطعام الفلسطيني التقليدي لا يختلف كثيرًا من مكان إلى آخر، ولكن لكل مكان خصوصيته، فاكتفيت بهز رأسي وابتسامة متعبة، لا أدري ماذا فهمت منها.

تركنا مهمة اختيار الأطباق لخلدون، وبعد عشر دقائق كانت الطاولة تمتلئ بأصناف الطعام، ورائحة السماق المنبعثة من الصحن تدغدغ أمعائي قبل أنفي، أشار خلدون شارحًا:

- الفتة الغزاوية، والسلطة الحارة، والرمانية، وبعض المعجنات.

بدأ الجميع بتناول الطعام، خاصة غسان الذي استفرد بطبق السماقية بعد أن أبدت فرنسيس رغبتها في تناول معجنات الزعتر والجبنة، واكتفى الآخران بشرب الشاي. تطوع غسان في الرد على سؤال فرنسيس عن معنى اسم المطعم، وأخذ يشرح لها بلغة إنجليزية عن حلوى الدحدح الفلسطينية، ثم عرج على ذكر قائمة من أشهر المأكولات الشعبية.

ابتسمت من حماسه بعد أن عدل الطعام اللذيذ مزاجه الوطني، وجعله يسترسل في ذكر معلومات لم تكن فرنسيس لتهتم بها في تلك اللحظة.

الساعة تقترب من الرابعة عصرًا عندما توقفت الحافلة أمام بناء مقسم إلى عدة عمارات متلاصقة على شكل مجمع سكني بواجهة من الحجر الأبيض، يتكون من ثلاثة طوابق، تدل الشرفات الخارجية لكل عمارة من المجمع على عدد الشقق. سلمنا خلدون مفتاح الشقة في الدور الثاني من المبنى، وسلم مفتاحًا إلى فرنسيس التي ستقيم في شقة في الدور الأرضي برفقة طبيبة أمريكية سبقتها قبل أشهر.

شعاع لا أعرف مصدره ضرب منتصف جبهتي ولمع في عيني، شعرت بصوت جلبة إخراج حقائبنا من السيارة يتباعد، وهمهمات خلدون وغسان لا أكاد أسمعها، تذكرت صوت والدي الذي كانت أمي تحتفظ به على أحد أشرطة الكاسيت، الصوت فيه يخرج (مجعلكًا) وممطوطًا. هتف مناديًا باسمي وشعرت بيد تمسك بجسدي الذي

أفلت مني مسترخيًا قاصدًا الأرض، لكن يد غسان كانت أسرع مني، فانتشلتني قبل أن أهوي، ظللت أترنح بين يديه محاولة أن أتماسك، لكنّ غثيانًا مفاجئًا هجم على أحشائي، ولم أشعر بنفسي إلا ورائحة القيء التي خرجت من جوفي وتناثرت على (طمبون) السيارة الخلفي تزكم أنفي، هُرعت فرانسيس وأمسكت بذراعي، وأخرجت منديلًا وبدأت تمسح فمي وملابسي التي تلوثت، كانت الحيرة والخوف تملآن وجه غسان، تساءل خلدون: هل نحتاج سيارة إسعاف؟ خرجت (لا) واهنة مني، ولكن نعم التي قالها غسان كانت أقوى. مضت عشر دقائق قضيتها جالسة في السيارة قبل وصول الإسعاف.

في مستشفى الشفاء وقفت الممرضة إلى جانبي تقيس ضغطي وتسحب عينة دم، قال خلدون: إنها سارة أخته، وإنها ستقوم بعمل اللازم.

وجه غسان واجم تمامًا، وهو يجلس قرب سرير الطوارئ، كان عابسًا بشكل واضح، واحمرار شديد في عينيه. الضعف الذي انتاب جسدي تغلب عليّ، فلم أستطع افتعال أيّ حديث معه. عادت سارة وتفقدت أنبوب المحلول المعلق في يدي، قالت مطمئنة إنه هبوط في الضغط وإجهاد، شعرت ببعض من القوة بعد أن وصل السائل المغذي إلى النصف، أغلقت سارة الستارة حول السرير وذهبت، حاولت إخراجه من صمته ووجومه، فقلت مازحة:

- هذه نتيجة (الطفاسة) التي تناولنا بها الطعام.

أجاب متنهدًا:

- ربما.

ثم فرك جبينه بأصابعه، وزاد الاحمرار في عينيه، وتمتم بصوت منخفض:

- بداية رائعة جدًّا، والسيجارة تضرب الآن في رأسي.

كنت أعرف أنه يتذمر، ولكنني تغاضيت تمامًا؛ حتى لا ينقلب الأمر إلى جدال أنهيناه قبل القدوم إلى غزة.

- يبدو الحيّ الذي سنسكن فيه نظيفًا، كثيرًا ما سمعت عن حي الرمال في فيديوهات الغزيين، ولكن الصور لا تفيه حقه من الوصف.

قلت في محاولة يائسة لتغيير مزاجه الذي عاد إلى حالته السيئة، لعله لا يضعف أمام رغبته في تدخين سيجارة. موضوع التدخين كان تحديًا بيننا منذ زواجنا، أطلق آلاف الوعود بتركه، ولكنه يحنث بوعوده بين الحين والآخر. رد ساخرًا:

- أفقدك جمال الحي السيطرة، وأرداك صريعة فتنته.

تبسمت وأنا أقرصه من ذراعه، وقبل أن أعلق على كلامه قاطعنا صوت سارة وهي تزيح الستارة مستفسرة عن المحلول الذي كانت نقاطه الأخيرة تتهاوى. حررت ذراعي من الإبرة المغروزة فيها، وقالت إن بإمكاني المغادرة على أن ترسل نتائج التحاليل مع خلدون.

كانت الزحمة قد بلغت ذروتها، امتلأ الشارع على مد النظر بالسيارات، الحركة التي يعج بها محيط المستشفى تتحدث عن ازدهار المكان. أعترف أنني كنت حينها مشدوهة بفعل شيء ينبع من داخلي لا علاقة له بالمكان، الجولة القصيرة منذ دخولنا معبر بيت حانون قبل ساعات كفيلة أن تزيل رهبة المكان الجديد، فالتفاصيل متشابهة مع شوارع رام الله والخليل، وحتى كثير من أحياء القدس التي سلمت من التهويد، ذلك الشيء نابع من مشاعري المتقدة بفكرة أنني أدخل هذا المكان المحاصر من بلادي، المكان الذي نبذته إسرائيل وعزلته عن العالم، وجعلت دخوله حكرًا على بعض المنظمات العالمية؛ لتلمّع شيئًا من صورتها في اجتماعات الأمم المتحدة ومحافلها. أما الخروج منه فهو بإذن خاص واستثنائي لحالات محددة من المرضى، وبعد أشهر من المماطلة والبحث في التاريخ النضالي لمقدم الطلب، لذلك سمعت أن عددًا قليلًا يسمح لهم بالمغادرة في مدة مشروطة بوقت محدد.

سجلات معظم أهل القطاع لم تكن يومًا فارغة من القيود الأمنية، التي تفرضها إسرائيل على كل من يقاومها ويرفض وجودها، وتسميهم مخربين.

الغزيون موصوفون بأنهم شوكة عالقة في جوف احتلال لم يستطع ابتلاع القطاع، لكنه أحكم خنقه وعزله، وقيد حركة أهله بشتى أنواع القيود. يتحدث العالم عن أهل غزة كأنهم أبطال خارقون، لكنهم في الحقيقة بشر حقيقيون، يريدون أن يحيوا في أرضهم الحياة التي يريدونها، لا تلك التي يمليها المتآمرون.

كان خلدون يقود السيارة بهدوء، بعد أن طلب منه غسان أن يتمهل حتى لا أشعر بالدوار. ولا أعرف لماذا شعرت أن غسان يتخذني حجة من أجل أن يطيل فترة التجول في شارع عمر المختار، الذي أعاد صخب الباعة فيه قليلًا من الحيوية إلى وجهه المتجهم، وجعله يدير رأسه نحو النافذة مرسلًا عينيه وراء تفاصيل المكان. أشار خلدون بيده نحو ممشى طويل تحيط به أشجار السرو والنخيل، وشجيرات الورد المتراصة كأنها تمنعه من الهرب، ونوافير المياه الصغيرة تتوزع بانتظام وترتيب. ورغم حرارة الجو إلا أن عددًا من الصبية كانوا يمرحون برفقة أمهاتهم، وبعضهم يلتف حول عربات البوظة، وشعر البنات، والهريسة الغزاوية.

قال موضحًا:

- هذه حديقة الجندي المجهول، وهي تقع في وسط حي الرمال، ومن حسن حظكم أنها قريبة جدًّا من مسكنكم، وأشار بيده إلى بناء على الضفة الأخرى للشارع، لم نتبين أنه المبنى الذي أوصلنا إليه قبل ساعة، وحال ما ألمّ بي من دخوله إلا بعد أن أشار إليه.

سأله غسان عن امتداد الشارع والمناطق المحيطة وطبيعة الحياة والاقتصاد، مما جعلني أتنهد بامتنان لفكرة أنه ربما سيألف المكان سريعًا، وينسى أحكامه المسبقة عن جدوى المجيء إلى غزة، وأنصتُّ إليه وهو يتولى مهمة الشرح لخلدون عمّا سمعه أن حي الرمال يعتبر العاصمة الاقتصادية لمدينة غزة، وأن شارع عمر المختار يعود تاريخ

إنشائه إلى عهد جمال باشا خلال الحرب العالمية الأولى. عرفت حينها أن ذلك الجزء في شخصية غسان كنفاني زوجي، الذي يمعن في إخفائه وتمويهه، كان جزءًا تمتزج روحه الوطنية بأفكاره الغربية عن الهجرة وتحقيق الذات، والنهوض بالوطن من خارج أرضه التي سممها العدو، ولم يبق لأبنائها منها سوى مجموعة من الحواجز والمعابر، تقزمهم أمام خوذة جندي غريب الملامح، كأن وجهه مصنوع من قطع الليجو.

وبينما غرقت للحظات في أفكاري، كانت السيارة تقف بنا أمام العمارة (10) في حي الرمال، وصوت خلدون يودعنا من النافذة مذكرًا أن شقتنا هي الشقة (7).

* * *

المبنى 10 الشقة 7

مضى يومان على إقامتنا في مسكننا الجديد في غزة، التعب الذي كانت بقاياه عالقة بجسدي ظل ملازمًا لي، فأمضيت معظم الوقت في خمول تام، كانت الشقة صغيرة، ولكن إطلالة الشرفة العريضة على الشارع وسماحها لضوء الشمس بالدخول كما يحلو له أعطى انطباعًا مريحًا للوهلة الأولى، لاسيما أنها لم تكن تحتاج إلى تنظيف إلا من بعض الغبار الذي علق بقطع الأثاث القليلة المتناثرة. تفقد غسان التمديدات الصحية وصنابير المياه، ومصابيح الكهرباء وخزائن المطبخ القليلة، سرني انشغاله في تجهيز الشقة وتنظيفها بعد أن طلب مني أن أرتاح، ولكنني لم أستطع تركه يتحرك في المكان وحده، غريزة الأنثى تأبى الاستسلام لقيام الرجل بأدوار البطولة المنزلية التي تعتبرها المرأة من خصوصياتها، لا سيما أنني أعرف هوسه في رمي الأشياء التي يعتقد أنها غير ضرورية، لم يحتج ترتيب المسكن الجديد إلى وقت طويل، خلال ساعتين ونصف كنا نجلس على الأريكة التي تتوسط الصالة، نحتسي الشاي الذي وجدناه في حقيبة تموين صغيرة زودنا بها خلدون، وبلا مقدمات سألته:

- ما رأيك، كيف ترى الوضع؟

أجاب وهو يرتشف كوبه:

- لم أعش أي وضع هنا إلى الآن لأحكم عليه، وأردف مبتسمًا: باستثناء حالة الاستفراغ التي أخرجت ما في جوفك على السيارة. لم يمهلني للرد على دعابته بمثلها، وقال بصوت جاد: إنه سيتجول قليلًا في المحالّ القريبة؛ ليعيد تعبئة هواتفنا وتفعيل الشبكة المحلية؛ لأنه بحاجة لإجراء بعض الاتصالات، وفتح بريده الإلكتروني. اغتنمت فرصة خروجه من الشقة، وانشغلت في إفراغ ما تبقى في حقائبنا وترتيب الأغراض. لم أكد أنتهي حتى كان صوت المفتاح يدور في أُكرة باب الشقة، دخل حاملًا كيسًا تفوح منه رائحة لذيذة. قال بصوت لا يخلو من مرح مفتعل:

- وجدت محل حلويات شعبية، وأحضرت لك هريسة بالقرفة.

ضحكت، وقلت:

- مبادرة طيبة، يا غسان كنفاني!

أغلق الكيس وسار نحو الباب، وهو يقول:

- سأعيدها من حيث جئت بها، إذا ناديتني كنفاني مرة أخرى.

- أنت غريب، أليس هذا اسمك؟!

- اسمي غسان.

- اسمك مركب؛ غسان كنفاني.

عاد ووضع الكيس على طاولة الطعام الصغيرة، وقال:

- على كلّ طلبت طعامًا سيصلنا بعد قليل، لا تتناولي الحلويات على معدة فارغة.

لم أعبأ بمحاولته تغيير الحديث، وتعمدت مناغشته:

- أجبني أليس اسمك غسان كنفاني؟ لماذا لا تريد أن أناديك باسمك كاملًا؟

لم تفته محاولتي استفزازه وأفلتت منه ضحكة، وذهب باتجاه الشرفة وأزاح جزءًا من الستار الثقيل الذي يحجب ضوء الشمس، وقال:

- أنا غسان، وأكاد لا أحمل تبعات هذا الاسم، من أين لي أن أتحمل أيضًا حمولة (كنفاني) الثقيلة، ذلك رجل نال شهرته بسبب حروب خاضها بقلمه، أما أنا فلم أخض أي بطولة تذكر في حياتي، بل إنني ابن... صمت وابتلع ريقه طويلًا، ثم أكمل:

لا قابلت (أم سعد)، ولا أنا (عائد إلى حيفا)، ولم أخطّ رسالة واحدة لغادة السمان، وإلى الآن لم يغتلني الموساد، كل ما أفعله أنني أكتب أشعارًا لا تروقك، وتسمينها عندما تغضبين مني (شعرًا ممسوخًا). صفقت بيديّ وهززت رأسي مثنية على براعته في نسج العبارات، وأنا أضحك.

كثيرًا ما كان يعجبني تمرده ورفضه لاسمه المركب، الذي ربطه بالأديب الفلسطيني المعروف، رغم ثقافته الأدبية الواسعة وحبه للشعر، وتغنيه الدائم بما تركه محمود درويش. استرساله في الحديث على هذا النحو حرك رغباتي الأنثوية، فأمعنت في استفزازه وأنا أتذوق قطعة صغيرة من الحلوى التي ملأت رائحتها أنفي رغم تحذيره.

- صدقني ليس مجرد اسم على اسم فقط، أنت تشبهه أيضًا، انظر إلى صور غسان كنفاني في محركات البحث، وانظر إلى نفسك في المرآة، أنت نسخة عنه.

لم أكد أكمل الجملة حتى نتقت ما في معدتي، ولكنني تفاديت تلويث المقعد بوضع الفوطة الصغيرة التي كنت أمسح بها الغبار على حجري، لتتلقى ما خرج من جوفي.

قمت مترنحة إلى الحمام، وسمعت جرس الباب وصوت خلدون، ثم صوت إغلاق الباب مرة أخرى.

خرجت من الحمام وأنا أمسح وجهي من قطرات الماء، وأمسح ما تساقط منها على ملابسي، كان غسان يجلس على طرف الأريكة وفي يده مغلف أبيض، عرفت أنها نتائج التحاليل التي أجريت لي قبل يومين في طوارئ المستشفى.

ظلّ ساهمًا تمامًا والظرف على حجره، وهو يجلس متكئًا على ذراعيه مميلًا جذعه إلى الأمام.

سألته: هل كان خلدون من طرق الباب؟ هل أحضر التحاليل؟ لماذا لم تدعه للدخول؟ هل جاءت معه سارة؟

لم يجب عن أيٍّ من أسئلتي المنهمرة كرذاذ لا يعبأ أين يسقط، وظل يحدق في الظرف ثم رفع رأسه فجأة، وقال بصوت متحشرج:

- نتيجة التحاليل...

- ما بها؟

- حامل، أنت حامل!

- لا يمكن. قلت مستنكرة.

- أنا من عليه الاستنكار، وليس أنت. قالها بعصبية بالغة.

نتيجة الفحص تقول إنك حامل في الشهر الثاني، وما حدث لك هو من أعراض الحمل، هل توقفت عن تناول الحبة؟!

في تلك اللحظة شعرت أنني غصن هش، تميله الريح دون أدنى مقاومة منه، وأكاد لا أستطيع سماع كلمات غسان المستنكرة، وهو يكرر سؤاله:

- هل توقفت عن تناول حبوب منع الحمل؟ الطبيب حذرك من الانقطاع عنها في مرحلة علاجك من الاكتئاب، أجيبيني يا ندى؟

ما الذي حصل؟ هل نسيت تناولها في يوم ما؟ تذكري، لا يمكن أن يحدث حمل الآن، تعلمين أن مضادات الاكتئاب التي تتناولينها تشوه الجنين، وقد تضرك أنت أيضًا إذا حدث ارتفاع لسكر الدم.

الكلمات تندفع منه بسرعة، وهو ينتفض ويتحرك في المكان، وأنا واقفة في مكاني كأنني دُقِقتُ إلى الأرض بمسامير، فقدت طاقتي على الرد عن أسئلته، جسدي كان يخرج عن سيطرة عقلي ويستعد للسقوط، ولكنني أشعر بتلك المسامير تمنعني من تحريك قدمي تمامًا، كنت أنظر إليه ببقايا وعي، حاولت الكلام لكن لساني لم يسعفني، لأطلب منه أن يمسك جسدي قبل أن يتهاوى على الأرض.

ما زال صوته الغاضب يصلني كأنه ذبذبات تبتعد وتقترب، فقدت التركيز في كلماته اللائمة، ومعه فقدت بقايا صلابة، فتساقطت على الأرض متكئة على حافة الأريكة، ولحق بي سريعًا ووجهه الغاضب يواجهني تمامًا، ساعدني للنهوض والجلوس على المقعد، ثم أحضر كأس ماء بللت بجرعة منه جفاف ريقي. لم يلبث أن أحضر ثلاث حبات من التمر وطلب مني تناولها؛ لأسيطر على حالة الهبوط التي عادت مرة أخرى.

مع دخول سكر التمر إلى جوفي بدأت أشعر بالتحسن، وأخذت نفسًا عميقًا مغمضة عينيّ، وأسندت رأسي إلى ظهر الأريكة. كان صامتًا تمامًا، ولكن الغضب التي كانت يعتمل في داخله شحن الهواء، وأولم للقدر التي تتهيأ لقذف ما فيها بعد وصولها مرحلة الغليان، وذلك ما كنت أحرص على تجنبه، خاصة في أيامنا الأولى في غزة.

بعد ساعة استعدت طاقتي بعد أن أرغمني على تناول بضع لقيمات، واحتساء كوب من الشاي، كان يأخذ أوراق التحاليل بين

الفينة والفينة ليدقق فيها، ثم يرميها على الطاولة ويدخل أصابعه في شعره الأسود المموج، المختلط بشعيرات بيضاء متناثرة.

خطواته وهو يجوب الغرفة بضيق، ويقترب من الشرفة، ثم يذهب إلى المطبخ يقرقع في أغراضه القليلة، كانت كلها كافية لأعرف مدى ضغطه على أعصابه في هذه اللحظة؛ حتى لا تحدث فرقعة انفجار بيننا.

سمعت صوته وهو يتحدث بالهاتف، ويتساءل عن مدى دقة التحاليل، وهل يمكن عمل فحوصات أخرى للتحقق من النتيجة؟

عاد إلى الصالة، وهو يقول: سأذهب لأحضر اختبار حمل من الصيدلية المجاورة، خلدون يقول: إن سارة أخبرته أن الفحوصات المنزلية تكون عالية الدقة، بعد مرور أكثر من أربعين يومًا على الحمل.

- ما الذي يزعجك إلى هذا الحد من خبر الحمل؟

نطقت أخيرًا بعد أن شعرت بقوة جسدي تتماسك من جديد.

صفق باب الشقة، وعاد ليجلس قبالتي صارخًا:

- وهل أنت سعيدة بهذا الخبر؟ أنسيت وضعك؟ أنسيت العلاج الذي تتناولينه؟ ألم يحذرك الأطباء من آثار العلاج التي قد تسبب تشوهًا خلقيًّا وعقليًّا لدى الجنين؟ ألم نتفق أن تحرصي على تناول ما يمنع حدوث حمل في فترة تناولك للأدوية؟ سايرتك طوال الأشهر الماضية لتخرجي من حالة الاكتئاب، سايرتك على حساب نفسي،

وعلى حساب ما أرغب القيام به فعلًا، وافقت على المجيء إلى هنا لأنتشلك من نفسيتك المتعبة، وحتى يحقق العلاج التي تتناولينه مفعوله.

ابتسمت رغمًا عني من تدافع الكلام، وكأنه كان جاهزًا دائمًا للانطلاق، قلت:

- عدنا إلى الدراما، حسنًا أنت الضحية وأنا الجلاد؟ هل يرضيك ذلك؟

استفزه كلامي لدرجة أنه لم ينتبه لرنين هاتفه.

- لن تكوني ندى، إذا لم تسخفي الأمور بهذه الطريقة؟

- ولن تكون غسان كنفاني إذا لم تبحث عن عقد لتضعها أمام المنشار. تفقد بريدنا الإلكتروني لابد أن يكون مكتب رام الله قد أرسل قائمة المهام التي سنكلف بها.

لم ترق له محاولتي في رشّ بعض الرذاذ البارد في الهواء، الذي بدأت حرارته ترتفع بيننا، أعرف أنها لن تروقه، شخصيته تميل إلى استنفاد كل مسالك المشكلة والتفافاتها حتى النهاية، لا يحب الخروج دون وضع نقاطه الخاصة على ما يريد من حروف. ولا أنكر أنني في تلك اللحظة ومع تعافي جسدي من الهبوط المفاجئ شعرت برغبة في مشاكسته.

- ألا يعجبك أن ننجب مرة أخرى؟

- يعجبني، ولكن ليس وقته الآن.

- على العكس الحياة في غزة على ما يبدو ليست بذلك السوء؟ الشوارع نظيفة ومنظمة والحي الذي سكنا فيه جميل، وحوله كثير من الخدمات، ويكفي أن شقتنا تطل على شارع عمر المختار الحيوي. سمعت أنه جميل جدًّا في الصيف، وأنهم يقيمون فيه فعاليات كثيرة و...

- لماذا تشعرينني أنك مفصولة عن الواقع؟

ضحكت من رده على محاولتي لفت نظره إلى جمال غزة وشوارعها.

- لأنني فعلًا جئت إلى هنا؛ لأنفصل.

انظر حولك، أليست أجواء غزة مريحة باستثناء ذلك المعبر اللعين؟!

- أنا أنظر فعلًا حولي وأتأمل، وأحاول أن أفهم؛ أحاول أن أفهمك وأن أفهم نفسي. لماذا جئنا هنا بدلًا من الذهاب إلى كندا؟ كيف تمكنت من جر رجلي بهذه السهولة، لتفاجئيني بكل استهتار ودون أي شعور بالمسؤولية، أنك أهملت تحذيرات الأطباء. أنت نطفة مهربة لم تكتمل فيها جينات العقلانية والمسؤولية، هذا ما أراه وهذا ما أحاول أن أتأمله الآن، الحذر أكثر ما زرعه احتلال بلادنا فينا، كيف تمكنت من التخلي بسهولة عنه؟

نبرته القاسية قلبت مزاجي تمامًا، لم أغضب يومًا من ذكره لموضوع النطفة المهربة، كما شعرت بغضب في تلك اللحظة، لأول مرة يأتي

على ذكر الموضوع بهذه السخرية القاسية، اعتدت من غسان أن يخرج الحوارات عن خط سيرها ببراعة كبيرة، يحرف عجلات مقطورته بكل يسر بل يفصلها تمامًا عن باقي القطار، ويسير بها على سكة أخرى ربما صنعها للتو واللحظة، وربما كانت مختزنة في داخله مع كثير من التراكمات، لتفلت منه في أي لحظة استفزاز، وتخرج ما في منطقه من غرابة.

طوال علاقتي به لم أكن أعبأ بلحظات انفعاله أو سورات غضبه، بقدر ما أحسب حسابًا لبراعته في انتقاء الكلمات الجارحة، عندما تصل سَورته نقطة ما في أعماقه. حاولت خلال سنوات زواجنا القليلة أن أعرف تلك النقطة التي تحوله إلى شخص آخر لا أعرفه عند الضغط عليها، كنت أظن أن موضوع تأخرنا في الإنجاب هو المحرك لشيء ما عميق جدًّا في وجدانه، بعد أن ولدت جنين مريضة واستعجلت الرحيل عن دنيانا، مشفقة علينا من مشاعر البؤس التي كانت تنتظرنا مع طفلة معوقة.

شعرت أن في زوجي شخصًا آخر لا أعرفه، مرات عديدة سألت نفسي: هل زوجي خائن؟ هل يعمل لصالح الاستخبارات الإسرائيلية؟ رائحة الخذلان التي كانت تنبعث من حديثه عن الوطن ونكبته، وتشتت أبنائه، ومحاولة التعايش البغيض مع حقيقة الاحتلال، كانت تثير دهشتي في البداية، مع مرور الوقت أدركت أنه يؤمن بفكرة التعايش مع العدو، لكنه يفلسفه بطريقة تجعلني في حيرة من أمره، ومن تحديد حقيقة مبادئه.

في كل مرة نتناقش فيها حول الموضوع ينسحب هو بريئًا، تاركًا إياي متهمة بالجلوس في أبراج عاجية والافتقار إلى محاكمة الأمور بعقلانية، والمثالية الزائفة التي صنعَتْها في عقلي أناشيد الثورة الفلسطينية، التي دغدغوا فيها مشاعر شعب منكوب، وصنعوا له انتصارات وهمية يتغنى بها.

هكذا كان غسان يراني.

❊ ❊

أنا وغسان في غزة

مر أسبوع على وصولنا غزة، استلمنا مهمتنا الرئيسة قبل يومين، لم نتمكن من معرفة تفاصيل عملنا بسبب وقفة احتجاجية تسد مدخل المقر، المحتجون يهتفون ضد قرار دولي مرتقب بتقليص الدعم العالمي لأعمال الوكالة، وتقليل عدد مقراتها العاملة في غزة، مما يعني شحًّا متوقعًا في الخدمات التي توفرها للاجئين والنازحين والمهجرين. التقينا خلدونًا الذي كان ضمن المحتجين. هذه الوقفات تروقني وتشعل الحماس في روحي، لا سيما وأنا أسمعهم يرددون تلك العبارات المحفورة في وجداني (حق العودة)، (لا للخضوع لطلبات الاحتلال)، (فلسطين عربية من البحر إلى النهر). على عكس غسان الذي كان يراها ضربًا من المزايدات بحجة الوطنية، لأشخاص يسعون إلى تحقيق مصالح شخصية على حساب الوطن.

(الوطن قميص يوسف الذي يريد الجميع أن يتسربلوا به؛ ليستعطفوا خزانة العزيز، أنت لا تعرفين شيئًا يا ندى، تظنين أنهم مؤمنون حقًّا بالشعارات التي يلوكونها في اجتماعاتهم؟ أنت غشيمة

ولا تفهمين السياسة بقرش). تلك المرة استفزتني الثقة التي تدثر كلامه، فقلت مهاجمة له على انتقاصه لفهمي: (وأنت ليس لديك حس وطني بقرش).

يومها قهقه بصوت مرتفع، وهو ينظر إليّ:

تعرفين أن محاولتك لإغاظتي فاشلة، أليس كذلك؟

- سأستمر في إغاظتك حتى أنجح .

- أما أنا فأستطيع أن أغيظك بسهولة تامة، إشعال سيجارة كفيل بذلك.

يومها نظرت إليه وتأملته كأنني أراه لأول مرة، عقلي الفلسفي تلقى جملته غير المكترثة ومضغها مرات ومرات، واستخلص ما فيها من عصارات ليحولها إلى ألعاب نارية، أطلقها في وجهه انتقامًا لاستخدامه موضوع السجائر، الذي يؤثر في صحتي وجهازي التنفسي، ردًّا على استفزازي له بدعابة عابرة.

- هل ستدخن أمامي وأنت تعلم أنني قد أتعرض لضيق تنفس حاد؟ هل فعلًا يمكن أن يأتي يوم وتؤذيني فيه يا غسان لمجرد أنني أختلف معك في الرأي؟ أيمكن أن تتعامل معي بهذا اللؤم فقط لتغيظني؟

عرفت حينها من تنهيدته وضربه لجبهته بيده أنه أدرك أنني أوقعته في فخ تأنيب الضمير، فضحك وقام من مكانه وقبل رأسي بسخرية، وهو يقول:

-أهل السماح ملاح. أمانة عليك يا ندى لا تبدئي حرب (الفتيشات) معي.

تبسمت حينها من تقمصه لدور الضحية، وقلت له بإصرار:

-إذًا، هل توافق أنك لا تمتلك حسًّا وطنيًّا؟

-ولا بقرش.

ضحكت حينها، ولم أكن أعرف أنه كان صادقًا تمامًا في شرح نفسه وأفكاره، من خلال تلك العبارات القصيرة التي كان يتفنن فيها لإخراج نقاشنا من دائرة التأزم.

بدأت أتعود الشقة والحيّ شيئًا فشيئًا، ولكن إحساسي بالإجهاد ما زال يؤثر فيّ. زارتني فرانسيس الأمريكية الشقراء، كانت تسأل عن كيفية الحصول على بعض الأغراض التي تنقصها في المسكن، أخبرتها أن غسان سيتولى المهمة، في المرة الأولى اعتذرت عن قبول دعوتي لشرب الشاي وتناول أقراص الزعتر الأخضر التي أحضرها خلدون، قال: إن والدته صنعتها بيديها، وإنها أزكى ما يمكن تذوقه في غزة. المرة الثانية لم تتردد في الدخول عندما عرضت عليها مشاركتي في تناول بعض الفاكهة. جلسنا ساعتين أخبرتني خلالها أنها حضرت مع مجموعة تطوعية تابعة لمنظمة إغاثية أمريكية تعمل تحت مظلة الأمم المتحدة. وأنها مكثت في مدينة القدس، ثم انتقلت إلى رام الله حيث تكثر المخيمات، وذلك يعطيها مساحة أكبر للقيام بعملها. نبرة

الإخلاص التي تمتلئ بها كلماتها جعلتني أشك أنها أمريكية، ربما تكون من إحدى الدول التي يهاجر أبناؤها إلى أمريكا ويتجنسون بجنسيتها. لكنها بددت حيرتي عندما فاجأتني بالحديث عن زوجها الذي قضى نحبه في العراق، قالت: إنه كان شابًّا في أواخر العشرينيات عندما تم إرساله مع مجموعة من الجنود إلى العراق عام 2009م. وبعد ثلاثة أشهر من وصوله انفجر لغم أرضي بالقرب من معسكرهم، وأودى بحياته مع اثنين آخرين. بدا الأسى في عينيها وهي تتحدث عن تلك الحادثة، عرفت حينها أن شيئًا مشتركًا بيني وبين هذه الأجنبية الشقراء، القادمة من بلاد نعرف دورها في تمكين مخالب الاحتلال من مفاصل أرضنا، ونوقن تمامًا أن الفيتو الذي استخدمته مرارًا منع كثيرًا من قرارات الاعتراف بحقوقنا، ومحاولات إنصافنا البائسة، كانت فرانسيس في أواخر عقدها الرابع، بشرتها البيضاء وشعرها الذهبي وآثار النمش في وجنتيها هو ما تمتلكه من معايير الجمال الغربي. إلا أن أكثر ما شدني إليها معرفتها للغة العربية الفصيحة، كانت بعض جملها مكسرة تمامًا، لكنها مفهومة.

أخبرتني أنها تعلمت العربية في أحد المراكز التابعة للجاليات العربية في ولاية ميشيغان، قالت إن والدها المتوفى كان أستاذًا جامعيًّا مهتمًا بالتراث الفكري للمشرق، واعتاد زيارة المغرب ومصر، وغيرهما من دول العالم الثالث .

الوقت الذي أمضيناه معًا جعلني أرتاح لهذه المرأة، تتسم شخصيتها بالطيبة والعفوية، ولكنني مع ذلك لم أتخلّ عن حذري

تمامًا، أجبت عن كثير من استفساراتها باقتضاب. سمعت كثيرًا من القصص عن تجنيد الجواسيس، وغرسهم ضمن جماعات المتطوعين القادمين إلى فلسطين. تعودت في طفولتي المبكرة في مخيم جنين أن أحتاط دائمًا من الغرباء، كانت أمي تحذرني من الإفصاح عن أي معلومة تتعلق بحياتنا الشخصية، وكثيرًا ما رددت: إن قطعان المستعربين يتربصون بأخبار عائلات الأسرى.

عندما أخبرت غسان عن قصة فرنسيس مطّ شفتيه مستهزئًا، وعلق بكلمة واحدة:

- مجنونة.

تغابيت وسألته عن السبب، فأجاب أن من يترك بلاد التحضر والتكنولوجيا والحريات والفرص، ويأتي للبحث عن بطولات زائفة في أرض تكاد تُنسى أنها محتلة، لا بد أن يكون مجنونًا.

خطر لي حينها أن أساله:

- هل كانت أمك مجنونة عندما وافقت على الزواج بأبيك، وجاءت معه إلى فلسطين؟

لا أنسى احمرار وجهه حينها، وزنهرة عينيه.

- لماذا تذكرين أمي الآن؟

أربكني جحوظ عينيه، وما ظننته شررًا يتدفق منهما ممتزجًا بلونهما العسلي.

- لم أذكرها بسوء، أقارن فقط!

- لا أسمح لك بالمقارنة.

قالها بحدة أفزعتني.

- آسفة، لم أقصد يا غسان أن أثير مشاعرك.

ابتعد نحو خزانة أرفف خشبية صغيرة في زاوية الصالة، وأخذ يمسحها بالمناديل الورقية.

- هذه الخزانة لأوراق العمل والسجلات، الرف الأول لي، والثاني لك.

احترمت رغبته في تغيير الموضوع، وسايرته في الكلام محاولة تصنع ضحكة:

- والثالث؟

- لي أيضًا. قالها دون أن يلتفت.

ثم تابع:

- تماشيًا مع أنانيتي وقلة وطنيتي، سآخذه منكِ.

- أنا لم أقل...همست بالرد، لكن صوت جرس الباب جاء؛ لينهي سيل التيار الكهربي الذي تدفق في النقاش فجأة.

بعد دقائق كانت رائحة الطعام الذي أرسلته جارتي خديجة مع زوجها عاصم تملأ المكان. شكره غسان على كرمه ولطفه بعد أن أصر الجار على تلبية دعوته لنا على العشاء في نهاية الأسبوع.

أخذت نفسًا عميقًا، ورجوت الله أن يتغير مزاجه ولا نعود إلى التشنج الذي سببه ذكري لوالدته. طوال حياتنا معًا كنت أحترم المساحة الخاصة التي يخفي فيها ذكرى والدته، كل ما أعرفه عنها كان نتاج فضفضة عابرة ينهيها سريعًا، سألته مرة: لماذا لا يحب أن يتحدث عن والدته مع أنه يعتبر حصوله على جنسية أمه إحدى الهبات السماوية، التي مكنته من الدراسة في بلاد لم يكن يحلم أن يحصل على امتيازاتها، بعد ضغط والده عليه لدراسة القانون؟ القانون الدولي، ذلك الوهم الكبير الذي ضيّعنا وسمح للاحتلال بابتلاع أراضينا، وغرس أنيابه في أرواحنا، وما زالت دماؤنا قوت وجوده، وما زلنا مكبلين بوهم عدالة أممية علقت في الدهاليز، كما ظلّ سؤالي لغسان عن أمّه عالقًا دون إجابة.

عندما التقيت والده للمرة الأولى في منزل خالي، بدا رفضه لي واضحًا على وجهه، وأنه قدم لخطبتي لابنه بصحبة زوجته فاطمة مكرهًا، عرفت حينها سبب ارتباط الفتاة الكندية التي جاءت للعمل مترجمة في قنصلية بلدها به، كان وسيمًا بشكل لافت للنظر، شعره الذي غزا البياض معظمه مصفف بطريقة أنيقة، وأنفه الحاد يضفي على نظرته نوعًا من الأشكنازية التي يعرفها أهل فلسطين.

وأنا أكتب هذه الكلمات انتبهت أن غسان أيضًا كان أشكنازي الملامح، لم أنتبه من قبل لهذه الميزة فيه. أعرف أن دماء اليهود الأشكناز

تمتزج بدماء شرق أوسطية رغم مجيئهم من أوروبا، فتظهر ميزة ذلك في صفاء بشرتهم وعيونهم الواسعة وملامحهم المرسومة. عندما أسررت لغسان بأن تقاطيع والده جميلة كأنه لورد فرنسي، ضحك كثيرًا من التشبيه، وغمز بطرف عينه قائلًا: وأنا ابن اللورد، دعابته لامست شيئا في قلبي، ونظرت إليه بابتسامة تخفي أسى ما: (وأنا بنت الأسير).

ألح والده أن يعرف تفاصيل عائلتي، وجذورها الممتدة في ذوق لم يخف تمامًا نظرة عدم الإعجاب بشكلي وهيئتي، كانت نظراته لا تخلو من تساؤل المستنكر: ما الذي أوقع غسان في حبك؟

لم ينطق بالسؤال، ولكنه ترك كل نظرة تنوب عنه في قول ذلك. ظننت أن السيرة الوحيدة التي ستجعله فخورًا بعروس ابنه سيرة والدها الأسير، وبطولة والدتي في تهريبي نطفة من سجون المحتل، لكن الحقيقة التي بدأت أعيها أننا لسنا أبطالًا بالجملة، وليس كل من يعيش على هذه الأرض يعبأ بمعايير الكرامة والمقاومة والحرية. قلت لغسان: والدك لم يعجب بي. فأجاب مبتسمًا: يكفي أن أعجب بك أنا. حاصرته أكثر: لماذا؟ ما الذي يعجبك فيّ؟ لم أرث الجمال مثلك، ولا الحسب والنسب مثل عائلتك.

لامني بشدة حينها، وطلب ألا أتفوه بهذا الكلام ثانية، وقال: إن في شخصيتي وبحة صوتي جمالًا أكثر من جمال الشكل. حاولت استفزاز شاعريته أكثر: هل يحب الشعراء لأجل بحة الصوت فقط؟

فاجأني قائلًا: نعم، مع أنني مجرد هاو للشعر. ضحك بعدها وتابع حديثه:

- المرأة لا يظهر جمالها إلا إذا تكلمت، وأنت إذا تكلمت ظهر جمال عقلك ووجهك معًا، الجمال الفلسطيني يكسو كل كلمة تقولينها، المرأة التي عاشت على هذه الأرض تمتلك جاذبية لا تمتلكها النساء الأخريات في شتى بقاع العالم، ربما يكون هذا تحيزًا كبيرًا، ولكن أفعل ما في وسعي لإرضائك؟ قالها ضاحكًا تلك الضحكة التي كانت تقول: كم سأكون سعيدة لو أبقيتها حاضرة في حياتنا.

تساءل مبتهجًا: هل يعوضك هذا عن جفاء والدي؟

وعدته ألا أتفوه بالمقارنات التي لا تعجبه، ولكن بعد أن سار بنا موكب الحياة، كان هو من يذكرها في سورات غضبه، ومشاحناتنا الفكرية التي تباينت بوضوح مع الوقت.

كان منهمكًا في إعداد السلطة بعد أن وضع الطعام على الطاولة الصغيرة في المطبخ، تمامًا كما اعتاد أن يفعل لتجنب الأحاديث التي لا يريدها، الانهماك بأي شيء. انضممت إليه وأنا أمدح الرائحة المنبعثة من طبق الجيران المغطى بورق الألمنيوم، أخرجت علبة لبن من الثلاجة وحبة ليمون، أزحت الغطاء القصديري عن الطبق، كان منظر البصل والدجاج والسماق وزيت الزيتون اللامع أكثر من أن تتحمله لوعة معدتي، خرجت من المطبخ بسرعة، لحقني ونظر إلي كمن ينظر إلى متهم متلبس. وفجر ما في داخله:

- من الأفضل أن نجد طبيبة نسائية ماهرة.

- لماذا؟ سألت.

- لا نريد هذا الحمل؟ الإجهاض المبكر في مصلحتك.

صعقت مما قال، لم تسعفني الكلمات قبل أن تهاجمني معدتي المضطربة مرة أخرى. أسرعت إلى الليمونة أشمها وأمضغ جزءًا منها.

- هذا الطفل سيأتي مشوهًا، لا يجب أن تتكرر مأساة ريتا مرة أخرى بسبب إهمال.... توقف، ولم ينطق الكاف.

- أرخيت رأسي على ظهر الأريكة، وأنا أحاول استعادة الهدوء في أمعائي وعقلي معًا.

أغراه صمتي بمواصلة الحديث، لكن صوته كان حادًّا وهادرًا هذه المرة:

- الآثار الجانبية لدواء الاكتئاب الذي تتناولينه خطيرة، ولا مجال للمغامرة. فكري بعقلك لا بقلبك ولو مرة يا ندى. وإياك أن تحدثيني عن معجزة ستنقذ الجنين الذي قاسمك العلاج من التشوه، أو أي إصابة محتملة، نسبة تأثير الدواء في الحمل نسبة مرتفعة، ولا مجال لأن نعبث بصحة طفل جديد يأتي الحياة مشوهًا أو معوقًا. علينا أن نجد طبيبة في أسرع وقت، سوف أسال خلدونًا و...

- لم أتناول الدواء الذي وصفه الطبيب النفسي.

قلت جملتي، وما زال رأسي مسترخيًا على الأريكة.

- ماذا تقصدين؟ هدر صوته ثانية.

- لم أتناول دواء الاكتئاب، لم أفتح علبة الدواء أصلًا، ولم أحضرها معي.

- كيف؟ كيف تعافيتِ إذًا؟ تحسنت تدريجيًّا منذ ذهابنا إلى الطبيب؟

أجبته بانفعال:

- لم أكن بحاجة إلى ذلك العلاج؛ لأخرج من حزني على وفاة جنين، الوقت الذي يجعلني أتماسك وأستعيد ثقتي بالله، وأنظر إلى الحياة كما كنت أنظر إليها دائمًا، هو كل ما كنت أحتاجه، ولكنك صممت على أن أراجع الطبيب النفسي. أما الدواء...

- أما الدواء فقد أوهمتني أنك تتناولينه؛ حتى تستدرجيني للموافقة على المجيء معك إلى غزة، والموافقة على عرض الوكالة.

- لا تأخذ الأمر بهذه الطريقة. قلت متنهدة من ثقل الحوار الذي أحاول تجنب الخوض فيه أكثر.

صرخ في وجهي:

- هو كذلك يا ندى، ببساطة أنا مغفل، وأنت خدعتني مستغلة إشفاقي على شعورك بالألم وتأنيب الضمير لما فعله إهمالك بابنتنا، هذا كل ما في الأمر. التقط أنفاسه وأكمل صراخه:

أوهمتني أنك تتناولين علاج الاكتئاب، ثم أوهمتني أنك لا تستطيعين البقاء في المكان الذي يذكرك بريتا أو جنين كما تسمينها، ثم ماذا؟ استخدمت عطفي ومحبتي لتجريني معك إلى هنا، مفارقة مضحكة؛ منذ عرفتك وأنا أحاول إقناعك أن نذهب ولو لأعوام إلى كندا حيث يمكنني أن آخذ فرصتي الحقيقية التي تناسب شهادة القانون الدولي التي أحملها. ضحك مستهزئًا، وأكمل:

كلما حدثتك عن طموحي وأحلامي قلت: الجغرافيا، اللعنة على الجغرافيا والتاريخ معًا .

أردت أن أتكلم، ولكنني فضلت ترك دموعي تحاور انفعاله وصراخه. التقلص في أمعائي أفقدني شهيتي في الرد، وعقلانيتي الزائدة التي تؤذي مشاعري في كثير من المواقف جعلتني أمارس الالتماس الذي أكرهه في شخصيتي، التماس الأعذار للآخر، ووضع نفسي مكانه، فتنخفض دفاعاتي عن نفسي، لكنها لا تثنيني عن تنفيذ قناعاتي. تركت عبراتي تسيل دون محاولة لردعها، فقد تطوعت لحمل عبء الموقف.

*

العجلة تعود إلى مسارها

عندما التقيت بفرنسيس في مخيم النازحين كان وجهها قد بهت، ولكنها لم تتخل عن نشاطها الجسدي، رغم الخوف والرعب الذي أصيبت به، يوم فجعنا صوت القصف على الحي الوادع في غزة، أكسبتها رحلة النزوح في البرد القارس على ظهر عربة خشبية يجرها حصان هزيل -كما أخبرتني- بعض الجلد والتحمل، قلت لها مواسية:

- اشكري الله أنك جئت في عربة، لقد تعطلت السيارة التي كانت تقلنا، واضطررت إلى مواصلة أكثر من نصف الطريق مشيًا على الأقدام.

الآن وأنا أستذكر ما حدث أتساءل: ما الذي جعل هذه المرأة، التي لا يربطها حبل سري بهذه الأرض تتحمل ملاحقة الموت لكل من تطأ قدمه ترابها؟ هل هو الفرار من حزنها المبكر على فقدان زوجها الشاب في العراق؟ كثيرًا ما كانت تردد أنه لم يكن محاربًا، كان مجرد مهندس معدات لم يحمل السلاح أو يقتل الأبرياء.

قلت لها مرة: حتى من يلمع البندقية من الغبار شريك في القتل، في عُرف من لوعتهم الحرب بفقدان أحبتهم، وسلب الأمن من حياتهم.

في الحرب كل من يأتي مع الغازي هو محارب يدخل قائمة الثأر. لذلك... ترددت قبل أن أكمل جملتي:

لذلك ربما أنت أيضًا ضمن هذه الدائرة لدى بعض العوام، الذين لن يميزوا أن جنسيتك الأمريكية مجرد هوية تعريف بمكان ولادتك، لا تلومي هؤلاء يا صديقتي. قلت لها: سأكون صريحة معك يا فرنسيس، حتى أنا -لا أخفي عنك- وربما إلى هذه اللحظة أخاف أن تكوني جاسوسة، أو أنك تعملين لحساب الاحتلال.

ضحكَت، وقالت بلغتها:

Oh my god. Are you serious nada?

- نعم. قلتها بابتسامة باهتة.

ألقيت نظرة على هاتفي الذي عاد اتصاله بالإنترنت بعد انقطاع عدة ساعات، وثرثرت بلا وعي:

- هذا خبر تتناقله المواقع الإخبارية اليوم، امرأة من ولاية تكساس تغرق طفلًا عربيًّا في أحد المسابح العامة. ذكرني الخبر بجوزيف تشوبا، العجوز الذي قتل صبيًّا في السادسة، وامرأة في عقدها الثالث في ولاية إلينوي.

- سمعت عن حادثة العجوز القاتل، ولكن الشرطة ألقت القبض عليه، ووجهت له تهمًا بارتكاب جرائم كراهية.

قالت مدافعة.

- تمامًا هذا ما أقصده، الكراهية.

في عالمنا العربي لدينا شعور عام بأنكم تكرهوننا نحن الذين تسمونهم العالم الثالث.

- وهل تحبوننا في عالمكم؟ تساءلت وهي تستجلب ابتسامة متعبة رغمًا عنها.

- لا. قلتها ضاحكة محاولة تخفيف شدة كلامي عليها، ونحن في هذا المكان الذي لا ينقصه السوء في أي شيء فضلًا عن أن يسوء مجرى الحديث بيننا.

- إذًا نحن متعادلتان، عزيزتي ندى.

تنهدت وأخرجت زفيرًا طويلًا، وأنا أضرب بخفة على قدمي التي تخدرت نتيجة جلسة القرفصاء التي طالت، ونحن نفرز بعض المعلبات التي وصلت أمس في عربة تابعة للأونروا، نجت من هجوم المستوطنين في معبر أبو سالم .

قلت متجنبة النظر في عينيها:

- أعرف أن المكان والظرف اللذين نحن فيهما لا يناسبان هذا الحوار، وأعرف أنك مجرد امرأة متطوعة جاءت تحت دوافع كثيرة إلى

هذه الجزء من العالم، وربما لا يكون لك ذنب في أي انطباع سيئ لدي أو لدى الكثيرين في بلادنا، ولكن.... مع ذلك، لسنا متعادلتين.

مهما كرهناكم فنحن معذورون، بمنطق بسيط أنتم مستعمرون، أعني بلادكم. نحن من تلقينا الظلم طوال عقود طويلة، تلقينا استعمار الغرب لأوطاننا، ومحاولاته لطمسنا، والقضاء علينا. الرصاص الذي استقر في قلوبنا، ومزق أحشاء أطفالنا من إبداعات مصانعكم، والقنابل التي غيرت وجه الأرض فشوهت البشر والشجر، وحفرت أنهارًا من دماء لم تكن يومًا على الخريطة، الأسلحة التي قتلتنا لم يسلم منها حتى الحجر، وكأيّ هدية لم ينسوا أن تكون ممهورة بتوقيع مرسلها، هذا تاريخ لا دخل لك فيه يا فرنسيس، إلا بقدر ما تؤيدينه أو ترفضينه، هذه حقيقة. ولا ألومك أنت شخصيًّا ولكن هكذا هي الأمور.

تململت في جلستها، وغرست أصابعها في شعرها الذهبي، وأغمضت عينيها وهي تضغط رأسها.

ثم اعتدلت فجأة، ونظرت إليّ مباشرة، وقالت في نبرة هادئة:

– لن أجادلك في موضوع الكراهية، فأنا وأنت هنا يجمعنا شيء آخر غير مشاعر الحب أو الصداقة. عندما قررت التطوع في الأعمال الإنسانية كان أمامي عدة خيارات: إفريقيا حيث الجوع والمرض، وفلسطين حيث المخيمات التي يحتاج سكانها إلى التعليم، ومساعدتهم على إتقان مهارات تؤهلهم للعيش، والتأقلم مع واقع يفرضه وجود سلطة أخرى محتلة لا تنتمي لهم. قرأت تاريخ الشرق الأوسط كاملًا

بعد مقتل زوجي (بيتر) في العراق، قررت أن آتي إلى بلادكم بإنسانيتي بصحبة المنظمات الخيرية، لا كما ذهب زوجي بصحبة البوارج وأسلحة الموت. بيتر لم يكن سيئًا أو ممتلئًا بالشر ونزعة القتل، كان مهندسًا في الجيش، هذه الوظيفة حلم كثير من شبابنا لدخلها المرتفع، لكنه لم يتوقع أن يأخذوه في تلك المهمة التي لم يعد منها. ذهب مكرهًا وعاد محمولًا في نعش مزين بالورود، عاملوا جثته باحترام، ولكن ذلك لم يعده حيًّا.

دخلت في نوبة بكاء، وارتفع صوت نشيجها، أشفقت عليها، وربت بيدي على كتفها واعتذرت منها لأنني نكأت أحزانها. هذا الشيء الإنساني الذي يتشارك فيه البشر على اختلاف قومياتهم وأعراقهم ما زلت أستشعره بقلبي شاهدًا على وحدانية من خلق، ووجوده المطلق، أليس الصانع تظهر صفاته متشابهة في صنعته، تلك التي تجعلك تقول: إن منشأ هذه المشاعر البشرية المتشابهة واحد.

لكن ما اقتحم عيني في غزة من مناظر الجثث، والأشلاء المبعثرة والرؤوس التي بلا أجساد جعلني أكثر التأمل في الحكمة الإلهية، من وجود بشر بنزعة وحشية، كوحوش الغاب التي لا تعرف إلا سفك الدماء وسيلة لبقائها حية.

مر أسبوعان على وصولنا إلى مخيم النازحين، انتقلنا من خان يونس إلى رفح هربًا من موت، لم أكن أخشاه أو أخافه، ظلت الآية تتردد في عقلي: (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)، لا أريد

أن أستسلم لفكرة الخوف التي لم أسمح لها يومًا أن تعرف طريقها إلى قلبي، لكنني في نوع جديد من الخوف لم أعرفه من قبل، أتوسل ربي أن يهبني القوة التي تجعلني متماسكة حتى أصل إليه، وأضمه إلى صدري مرة أخرى.

الانقطاع المتواصل لشبكة الإنترنت قطعنا عن العالم، لم نعد نعرف ما يحصل هناك، حيث الموت أصبح بالمجان دون أي تكلفة، الناس في المخيم في حالة أعجز عن فهمها أنا من ولدت في المخيم، الرعب الممتزج بشعور الكبرياء وعبارات الصبر والاستعانة بالله التي لا ينفك الجميع عن ترديدها ليس شيئًا عابرًا في حياتي أو حياة هذا الشعب. هكذا عاش الناس حياتهم، التي لم تخل من ألم الفقد والهلع الذي تسببه زنانات العدو الاستكشافية، التي أصبحت جزءًا عاديًّا من حياة المخيم، وامتزج صوتها بكل شيء .

أطلق بعض الشبان على مخيمنا اسم (مخيم أبو ندى) إحياء لذكرى عائلة (أبو ندى)، التي قضت في بدايات القصف على غزة، عندما سألت حمزة عن هذه العائلة، قال: إنها إحدى عائلات قرية جرجا، التي هجّر الصهاينة أهلها ودمروها كاملة، ومع أنهم لم يبنوا فيها مستوطنات إلا أنهم أحاطوها بسياج شائك، ولم يبق منها ماثلًا للعيان سوى الأزقة والركام، ومنزل وحيد ظل ثابتًا في طرف القرية مع بضع شجيرات من الجميز والصبار.

أردت أن أخبره أن الاسم الذي أطلقوه على المخيم يمسني أيضًا، لو ظل أبي حيًّا لكانت كنيته (أبو ندى)، أبي الأسير الذي قضى في السجون دون تهمة، والد النطفة الناجية من المقبرة في زنزانة الموت.

طوال أسبوعين كانت مهمتنا أنا وفرنسيس وعدد من نساء المخيم احتضان الأطفال الجرحى، وخاصة الذين فقدوا عائلاتهم في القصف المدفعي المتكرر، أو الذين لم تحظ أسرهم إلى الآن بالخروج من تحت الأنقاض. المعدات اللازمة لإزالة أكوام الركام والحجارة ليست متوفرة، والعمل يتم بطريقة بدائية وبمجهود المتطوعين. حتى بلدية خان يونس لم تعد معداتها المحدودة قادرة على مواجهة كمية الردم المنتشرة في كل مكان.

أحضروا طفلة في السنة الثالثة من عمرها، وجدوها تبكي قرب جثة والدتها، قالوا إن اسمها جنين، بكيت حتى شعرت أنني أريد أن أستفرغ أمعائي، تذكرت ابنتي جنين، تذكرت غسان. تمنيت لو أنه موجود لأبكي في حضنه. لم أدرك قبل هذه الأيام كم كنت أحبه بكل ما فيه من تناقضات وأفكار لا تعجبني. هل كان على حق؟ هل أنا من صعبت عليه الحياة؟

لمت نفسي فورًا أنني نسيت أنه تخلى عني وأفلت يدي، آلمني أن تلك الخصلة ما زالت تسيطر على ردود أفعالي، خصلة التماس الأعذار.

بعدها بساعتين قالوا: إنهم عثروا على والد الطفلة حيًّا، ولكنه ما زال تحت تأثير صدمة فقدان زوجته، ظلت جنين معي في الخيمة إلى جانب خمسة أطفال آخرين تتراوح أعمارهم بين العامين والأربعة، كنت أنا وفرنسيس نعتني بهم حسب ما يتوفر لدينا من احتياجاتهم.

تساءلت فرنسيس في جزع:

أين يذهب هؤلاء الأطفال إذا لم يبق أحد من عائلاتهم؟ من سيتولى رعايتهم؟

لم أمتلك أي جواب يطمئنها، لكنني تذكرت فيلمًا شاهدته من قبل عن تجارة أطفال الحروب، التي تقوم بها جمعيات ومنظمات تتظاهر بالعمل الخيري. قرصتني أمعائي بشدة، أحسست غصة كبيرة في حلقي تكاد تخنقني، لكن فكرة حلقت في ذهني أنقذتني من حرقة التفكير في الأمر.

منذ مدة وأنا أفكر، لماذا يسكت الله عن هذا القهر الذي يحدث في كونه؟! الرب الرحيم لا يرضيه كل هذا الألم الذي يكابده الناس في هذا الجزء الصغير من مملكته الكونية المتسعة. لم أتأمل قبل هذا الوقت في حقيقة وجود الإنسان على هذه الأرض كما أفعل هذه الأيام. ولم أشعر براحة من شيء بقدر ما قرّ في نفسي أن حقيقتنا الخالدة هي الروح وليست الأجساد، عندما يغادر الإنسان الحياة تخرج روحه من ذلك الحيز المادي المسمى جسدًا، تتركه خلفها؛ لأنه لم يكن سوى مطيتها، عند الله ستجتمع الأرواح فقط، ستتخلى عن الجسد المتألم النازف المكلوم المنهك بالتعب والجراح. لو كان الجسد مهمًّا لما مكن الله أعداءنا منه، لكنها الروح، وعندما يحين موعد فراقها لمستضيفها الطيني ستنتهي رحلة عذابها، ويصبح خارج الإحساس فلا يضير الروح ما يحصل له من بعدها، فقد نجت.

بعد يومين قال لي حمزة: إنه يريد أن يكلمني على انفراد. صوته الجاد لم يشعرني بأي ارتباك أو خوف، ما مررت به إلى الآن قتل مشاعر الخوف لديّ، الحياة صارت سهلة وخفيفة بعد كل هذا الموت الذي شاهدته من حولي، شعرت أن هؤلاء الشهداء هم الناجون، ومن يلحق بهم فهو حتمًا من الناجين أيضًا.

تبعته إلى شارع السوق القديم في الحي المجاور للمخيم، جلست على دكة خشبية كانت كل ما تبقى من مدرسة الوكالة التي تدمرت بالقرب من الحي، تذكرت حي الرمال الذي عشت فيه لمدة عامين في غزة بأسى يعتصر قلبي.

عندما يقف الإنسان أمام منزله الذي تهدم فإنه لا يرى الجدران، بل حياته وذكرياته، أحلامه وبوحه الذي ناجى به كل حجر من حجارته، فشاركته أفراحه وضحكاته، وربتت على كتفه ومسحت في أوقات الحزن عبراته. أنفاس الماضي هي الهدم الحقيقي الذي نتجرع ألمه كلما تساقط جدار وهوى سقف.

ظل واقفًا والحيرة تملأ وجهه، والتلعثم يمنع كلماته من الانطلاق.

الإعياء الذي كنت أحسه في جسدي وروحي جعلني أستحثه على قول ما يريد.

-ستعودين إلى رام الله قريبًا، هناك توصية لمساعدتك.

قال بإيجاز.

- توصية؟ ممن؟

- لا أعرف بالتحديد. ولكن الأمم المتحدة ستجلي كل من يعملون معها في القريب العاجل، هناك سيارة إسعاف واحدة سمح الاحتلال بدخولها، لإجلاء موظفي الوكالة ممن يحملون البطاقة الذهبية، وأنت واحدة منهم، ذكروك بالاسم، الأولوية لديهم لمن يحملون الجنسيات الأجنبية وعددهم هنا ثمانية أشخاص، والسيارة تتسع لخمسة فقط، ستكونين من الخمسة الذين يصعدون السيارة، يبدو أن واسطتك قوية.

- والأطفال الذين فقدوا أهليهم، والذين فقدوا أطرافهم، والجرحى والشهداء وكل هذا الموت والدمار، ورائحة عفونة الدماء التي تخنق الأنفاس أليس لهذا كله واسطة؟

تلعثم الشاب، وخرج صوته متحشرجًا:

- (ست ندى) تعلمين أنه لا أحد يكترث لكل ما ذكرته، العالم يريدنا أن نفنى ليرتاح.

- لماذا، ما الخطيئة التي يعاقبوننا عليها؟ لماذا موتنا يسعدهم إلى هذا الحد؟

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- كان جدي يخبرنا أن وجودنا خطر عليهم؛ لذلك لن يهنؤوا بالعيش إلا إذا اقتلعونا من جذور هذه الأرض، وهذا من المستحيلات التي لن تحدث؟

نهضت من فوق الدكة الخشبية، وسألته:

هل المرأة الأمريكية التي تشاركني الخيمة ستكون مع المجموعة؟

اكتفى بهز رأسه، فابتسمت بقهر:

- النجاة من الموت أصبح بقائمة، يؤسفني أن أخرج من غزة على هذه القائمة، ولكنني لا أستطيع أن أتخلى عن (هاشم) وتركه لأفكار والده، لن أسامح نفسي ما حييت إذا تشرب هاشم تلك الأفكار.

لم يطالبني بتوضيح ما قلت، فشكرته في داخلي.

مضى الشاب الذي لا أعرف عنه إلا اسمه الذي عرّف به نفسه، أفعى ما لدغت قلبي، شعرت للحظة بسمها يسري في جسدي.

في الليلة التي سبقت خروجنا من خان يونس في حضن سيارة الإسعاف، شب حريق في مجموعة من الخيام، كانت خيمتنا من بين الخيام التي طالتها النيران، كانت فرانسيس منهارة، بعد أن تمكن الشبان من إخراجها من الخيمة قبل تمادي ألسنة اللهب في التهام ما حولها، خرجتُ من الخيمة قبل الحريق بدقائق لتوديع بعض العائلات التي توطدت علاقتي بها، تدخلت يد القدر لحمايتي من موت محتمل كمئات الذين تفحمت أجسادهم.

الليلة التي خرجنا فيها من غزة كانت ليلة قاتمة مجللة بالدخان الذي حوّل الفضاء إلى غيوم سوداء، ورائحة شواء الأجساد تملأ

الهواء، الكثيرون انتابتهم نوبات غثيان واستفراغ متواصل، لم يتحملوا فكرة أن يتنفسوا رائحة موت أحبائهم حرقًا، في تلك اللحظة عاهدت نفسي لو قدرت لي النجاة كاملة، أني لن أطعم اللحم المشوي ما حييت، لن تغادر أنفي هذه الرائحة، رائحة اللحوم البشرية التي ماتت مشوية بنيران الحقد، على مرأى ومسمع العالم. بصقت ما تجمع في فمي من لعاب والأفكار تبتلعني، بصقت عدة مرات علّ ذلك الطعم يغادر جوفي.

❋ ❋

هاشم

اليوم تتملكني رغبة بوضع حجر على قلبي، أو شد وثاقه إلى جبل كبير، لعل هذا الخفقان يهدأ وهذه الرجفة تتوقف، وهذا النفس يتحرر من ضيق ممره اليومي فيفجر مجراه ويملأ بالأكسجين هواء الغرفة، الأوراق التي جلبتها (أنجليكا) قاربت على النفاد، والقلم يقترب من لفظ أنفاسه الأخيرة، سأكتب اليوم عن هاشم، طفلي الذي لم أهنأ برؤيته إلا الأشهر الثمانية الأولى من عمره قبل أن يختطفه غسان.

بعد ذلك اليوم الذي لعن فيه الجغرافيا، واتهمني بخديعته وجر قدميه إلى غزة، ظلت علاقته بي فاترة، لكنها هونت عليّ أشهر الحمل، فقدانه لشهية الجدال أراح أعصابي قليلًا. هذه الخصلة النسوية تبدو في عيون الرجال نوعًا من التخلي، لكنها إحدى ودائع الله الثمينة في هذا المخلوق المسمى: أنثى. نفسها القصير في كل شيء هبة ربانية، قد تفتعل جبلًا من الأزمات في لحظة، ولكنها سرعان ما تبدأ بتسوية قمة الجبل بالأرض، وقد تعلن كرهها لكل شيء في حياتها العائلية: الزوج، والأولاد، والمسؤولية، في سورة غضب عابرة، ولكنها تحرص على

وضع الطعام على مائدة الغداء في الموعد. وقد تفعل مثلي في تلك الفترة التي كان غسان يتجنب النظر إلى عيني أو توجيه حديث مباشر إليّ، لكن يده كانت تقع بسهولة على جميع ما يلزمه من أغراضه وقهوته وطعامه. هكذا كانت طريقتي في تهدئة الأمواج الصاخبة، تجنب ملامستها، ربما لن تهدأ ولكنني سأحمي نفسي من هيجانها.

العمل مر برتابة بعد الشهر الأول، لم يكن يلزمني أكثر من شهر لأفهم طبيعة المكان وسير العمل، لا سيما أننا كنا نعمل مشرفين، يتنقلون بين المباني المدرسية والمراكز الثقافية التابعة للأونروا، بعد خمسة أشهر طلبوا مني أن ألتزم بالدوام في المقر الرئيس فقط والقيام بأعمال مكتبية، وتفريغ الدراسات الميدانية وإنشاء رسوم بيانية لها. قالت فداء زميلتي في العمل: إنني مدعومة. ضحكت حينها، وقلت: يا حسرة من يدعم واحدة مثلي؟

- الأستاذ غسان، أكيد. قالتها غامزة بعينها. وتابعت بضحكة لا تخلو من غيرة نسائية.

- الكل يعرف أنه توسط لتثبيتك في المقر بسبب الحمل؛ يخاف عليك، أما أنا فقد عاقبوني بهذه السجلات بعد أن كنت طيرًا فرارًا.

ابتسمت والتزمت الصمت؛ حتى لا يتشعب الحديث مثلما تفعل كل مرة يجمعنا مكان واحد.

- كيف الحياة في رام الله؟ أحلى من غزة صح؟ كيف اصطدت هذا العريس اللقطة؟ شخصية وجمال وطول...

كنت أستمع إلى تدفق الكلام منها، وفكرة واحدة تدور في رأسي تجعلني أنظر إليها مبتسمة .

هذه الفتاة نموذج إنساني عادي كامل البشرية، قدرها أن تعيش في بقعة كونية اسمها غزة، لكنها تفكر مثل غالبية البشر، مثل كثيرات من النساء تلوك أحاديث عابرة لتمضية الوقت، تتحدث عن عذاب شعورها بالعنوسة وهي تقترب من الأربعين، عن الرجال ووسامتهم، أعتقد أنها وقعت في حب زوجي غسان، كنت أبتسم في داخلي وأقول: صياد بلا شبكة. لم أسمعها تتحدث عن الحرية المسلوبة، أو أفعى الاحتلال الملتفة حول بلادنا، لم تفتعل الحوارات الوطنية التي يتشدق بها المتشدقون أصحاب الكراسي، ورواد المؤتمرات وأصدقاء شاشات التلفزة، أقصى أمنياتها أن تتزوج، ويصبح لها ولد ستسميه خالدًا على اسم والدها. تتقن انتزاع الابتسامات والضحكات من مستمعها، لا تجد حرجًا من قول ما تريد، الحياة بالنسبة إليها بسيطة وقصيرة، وستكون جميلة لو حظيت بزوج. كلما التقيت بفداء توطدت علاقتي بها، وزاد تقبلي لشخصيتها العفوية المرحة، أصبحت تطلق النكات بأنها ستسرق غسان مني، وأنا أضحك في البداية بخجل، ولكنني مع الوقت أصبحت أجاريها، وأرد على تحرشها بي: (تتهني فيه).

لم تهدأ ثورة غسان الداخلية التي كنت أراها في عينيه، إلا بعد أن قالت لي طبيبة المركز الصحي مستهجنة: في الشهر السابع، ولا تعرفين نوع الجنين؟

كانت رغبتي ألا أعرف نوع الطفل إلا بعد أن يأتي سليمًا إلى الحياة، طوال مراجعاتي في عيادة النساء في المستشفى كان يتجنب الدخول معي إلى غرفة الكشف الطبي، وكان يوصلني أحيانًا، ثم يذهب ويعود بعد انتهاء المراجعة لإعادتي إلى المنزل دون أن يسأل. فسرت ذلك بأنه يخشى سماع أي ملحوظة سيئة عن صحة الجنين، لكنه كان جزءًا من معاقبته لي، هذا ما أدركته متأخرة.

فضول الطبيبة كان أكبر من فضولي، قالت وهي تضحك: هل تريدين ولدًا أو بنتًا؟ قبل أن أجيب قالت مبتسمة: ولد.

أذكر أنني سمعت أمي تقسم أغلظ الأيمان للخالة أم غيث: إن الدنيا لم تسعها من الفرحة عندما عرفت أنها ستنجب بنتًا، ربما كان شعور الحب الذي غمرتني به أمي سببًا في تشكيل شخصيتي على هذا النحو، الذي جعل غسان يراني بعين الإعجاب التام، لكنه بدأ يتململ الآن من هذه الشخصية، قال لي مرة: (على المرأة ألا تكون كاملة، وإلا فإن الرجل لن يجد متعة في أي شيء يقدمه لها) .

شعوري وأنا أسمع الطبيبة تعلن نوع الجنين أدخلني في تناقض شعوري غريب، لست من الذين يفرقون بين الولد والبنت، أو هكذا كنت أعتقد، مشاعر الفخر والزهو والانتصار التي غمرتني تلك اللحظة أخجلتني من نفسي، لكنني فرحت كما لم أفرح من قبل، فرحت أكثر من فرحتي بحملي الأول بعد سنوات من الحرمان. طوال الأشهر الماضية كان لدي شعور قوي بأن فتاة أخرى تنام في أحشائي،

كنت أتصرف على هذا الأساس، وجميع أدعيتي تنحصر في أن تخرج إلى الحياة معافاة وقوية، ولديها قوة التشبث للبقاء والعيش.

عندما أخبرت غسان أنه سيرزق بولد، كان يجلس كعادته في الأمسيات التي عليه أن ينجز فيها ما تراكم من عمل على مقعد قرب درابزين الشرفة، واضعًا إبريق الشاي أمامه وجهاز الحاسوب في حضنه، يراجع أعمال اليوم ويوثق التقارير، ويرسل ما كان جاهزًا منها، ويستلم المراسلات المؤجلة ويتواصل مع بعض الحملات الإغاثية التي سمح لها بدخول غزة، وتزويد المدارس ببعض الأدوات التعليمية. كنت أعرف أن شحنة في الطريق تحمل ألواحًا ذكية سيتم استبدالها بالألواح الخشبية والطباشير في عدد محدود من الأبنية المدرسية. أما الأمسيات التي لا عمل فيها، فكان يخرج غالبًا لحضور ندوة ثقافية، أو أمسية شعرية أو الجلوس على المقهى مع خلدون وعاصم وشخص آخر تعرف إليه في إحدى الندوات .

اعتاد أن يضع كرسيًّا واحدًا على الشرفة منذ أن فترت علاقتنا، كان ذلك يريحني معظم الأيام من معاتباته السابقة متسائلًا: لماذا لا تجلسين معي؟ الآن لا يريدني أن أجلس معه. أعفاني إرهاق جسمي وتعبي ووزني المتزايد من أي شعور باللوم أو الحنق. لم أختبر شعور التقبل كما اختبرته تلك الفترة.

نظر إليّ من وراء نظارته:

- هل تكلمينني.

قلت بمشاعر مرتجفة:

- لا يوجد غيري وغيرك في البيت.

ثم أعدت الجملة التي أملت أن تنتشلنا من هذه الحالة التي وصلت إليها علاقتنا.

- أخبرتني الطبيبة أننا سنرزق بولد، وهو بصحة جيدة ونبضه طبيعي، ووزنه مناسب وجميع الفحوصات...

أوقفتني دموعي وعلقت الكلمات في جوفي، وهو يمعن النظر إلى أوراقه وشاشته، ويقول:

- مبارك.

أخفيت وجهي بين كفي واجتاحتني نوبة بكاء مختزن، منذ أن تبدلت معاملته لي بعد أن وجد نفسه مضطرًا إلى الالتزام ببنود العقد المؤقت مع الوكالة، وأنه لا يستطيع المغادرة أو أخذ إجازة طويلة إلا بعد مرور عام من مباشرة العمل.

بقيت أبكي وحدي في خيمتي التي صنعتها بكفي لعدة دقائق، كنت أسمع صوت ابتلاعه لريقه أو هكذا تخيلت، اخترق صوته جدران الخيمة:

- سنسميه هاشمًا. واستدرك مستهزئًا: أم نسميه فايزًا؟ حتى يكتمل الاسم المفعم بالوطنية؛ فايز غسان كنفاني.

لم أنتبه حينها لمغزى اسم فايز، ولكنني عرفت بعدها الكوميديا السوداء في اسم فايز، لم أكن قبل ذلك أعرف أن الأديب غسان كنفاني كان له ولد اسمه فايز إلا عندما ذكره غسان.

أردت أن أسأله: هل اسم هاشم له علاقة بغزة؟ لكنني تراجعت، من اطلع على سيرة غسان وعائلته لا بد أن يعرف أن هذه البقعة تلقب بغزة هاشم.

ربما كانت المرة الأولى التي أتخذ فيها قرارًا بيني وبين نفسي بمنع عقلي عن السؤال الذي كان يؤلمني دائمًا: هل كان قلب غسان وعقله خائنين للقضية؟!

بدأت علاقتنا تتحسن، لم يعد يتجنبني كما كان يفعل، أصبح ينهي أعماله في الصالة، وإذا خرج إلى الشرفة وضع مقعدين، وإذا صنع القهوة وضع فنجانين. أصبح يوبخني إذا رآني أحمل شيئًا ثقيلًا، أو أتمادى في تنظيف المنزل بمحاولة تحريك بعض قطع الأثاث. هل كان خوفًا على ابنه أو حبًّا لي، لا يهم. هكذا تفقد كثير من الأشياء المهمة في حياتنا قيمتها لصالح أشياء أخرى أكثر أهمية، الرضا بحالات التبدل والتغير الإنساني التي تطرأ على تصرفاتنا ومشاعرنا وسيلتنا الوحيدة لتجنب الوقوع في الألم، والبقاء في دائرة المطالبة باستحقاقاتنا العاطفية من الآخرين.

أخبرت أنجيلكا أنني بحاجة إلى المزيد من الورق والأقلام، بدا وجهها الأحمر المنمش مستاء.

قالت: لا يمكن، صعب جدًّا؛ اليوم موعد زيارة المفتشين، أنت تضغطين عليّ، إذا استمررت في ذلك فسأبلغ السجانة.

كنت أعرف أنها لن تنفذ تهديدها، شخصيتها لا تؤهلها للمواجهة. لم تكن من أي نوع عرفته من الأشخاص، إلا النوع الذي يريد أن يعمل، ويلقي القبض على حفنة من النقود نهاية كل شهر.

أنجليكا تعرف أنها تعمل في الإشراف على زنازين سجن النساء، مقابل تلك الحفنة التي تنسيها قليلًا من مشاعر الذل التي تتسرب من الكلمات المقتضبة التي دارت بيننا. الجملة التي لا أستطيع نسيانها وها أنذا أسجلها هنا ليقرأ من سيقدر له قراءة ما كتبته، إذا خرج من سطوة الجدران الثخينة التي تحيط بي من كل الجوانب. قالت لي: إنها تشكر الرب كثيرًا؛ لأنها تعمل داخل مخادع السجينات، ولأنه لم يتم تجنيدها في الجيش وحمل السلاح. أخبرتني أنها أخفقت في تعلم رمي الرصاص، مما جعلهم يحولونها إلى العمل في الزنازين. معاقبة ضابطة السجن لي بتنظيف حمامها الخاص أهون عليّ من حمل البندقية. سألتها: لماذا جئت إذًا؟

نفثت دخان سيجارتها في وجهي، وقالت:

- لو كان جسدك مستباحًا في أقذر ملاجئ (ليتوانيا)، فهل ستأتين أو ستبقين هناك؟

لم تكن تنتظر جوابًا، كانت كمن يهذي مع نفسه، وهي تمسك جهاز تحكم بالكاميرا المزروعة في جانب الزنزانة، عرفت أنها تعطل الكاميرا كلما أرادت دخول زنزانتي، (محّ) سيجارتها في عجالة.

لم تكن الزنزانة التي وجدت نفسي فيها سوى حمام كريه، في إحدى زواياه مرحاض أرضي يفيض بما فيه، وفي الزاوية الثانية حنفية صدئة يتسرب منها خيط رفيع متقطع من مياه صفراء اللون يضرب على الأرضية بثبات، يجبر الأذن على التركيز معه، ليتحول مع الوقت إلى دقات مستثيرة للأعصاب، لا سيما في الأوقات التي يحتاج فيها الجسد للنوم. وفي الطرف الأيسر مرتبة قذرة من الإسفنج المتآكل، إذا حاولت تحريكها تفتت متناثرة تاركة رائحته عالقة في اليد، الكاميرا المنصوبة في الغرفة كانت تشعرني بالخجل من قضاء حاجتي؛ لذلك توقفت عن تناول أيّ شيء يحضرونه في الوجبة الوحيدة المقززة؛ حتى لا أضطر إلى استخدام المرحاض، مع الوقت تعلمت أن أفضل وقت لممارسة حاجتي الطبيعية عندما تبدأ بنفث دخان سيجارتها.

عندما أغمي عليّ بعد اعتقالهم لي تركوني في الحمام -الذي يطلقون عليه اسم زنزانة- وحيدة مرمية على أرضيته الخشنة السوداء برائحته المريعة. أيقظتني أنجيلكا برشقات من ماء دلو مسح الأرضيات الذي كانت العاملة تدفعه أمامها في الممر. القذارة كانت على هيئة ماء متسخ بالخرقة الكالحة (الممسحة)، جعلتني رائحتها أفيق مرتعبة، ظننتُني في كابوس ولم يخب ظني، كان كابوسًا حقيقيًّا أعيشه بكل تفاصيله، بعد أن تكررت نوبات الإغماء التي أصبحت ترافقني، وأصبحت أسعد بها؛ لأنها تفصلني قليلًا عن الواقع الذي لا أعرف من أين وكيف جاء. الأحلام الأثيرية التي كنت أسبح في خيالاتها كانت تريح نفسي قليلًا، غسان كنفاني زوجي صاحب الوجه الجميل،

وجنين الصغيرة قد كبرت وتعافى جسدها، وطالت ضفائر شعرها الكستنائي الناعم، هكذا كانت تتراءى في أحلامي جميلة كأبيها غسان، وهاشم.. هاشم رأيته في حلمي شابًّا طويلًا ينظر إليّ من بعيد ويبتسم، ولكنه لا يقترب مني أبدًا، كان وجهه يتداخل مع أوجه كثيرة، وجه غسان ووجه أبي الذي عرفته من الصور، ووجه جده الذي لم يحبني ولم يكن راضيًا عن زواج ابنه مني.

لا أعرف كم مر على دخولي هذا المكان، ذاكرة الوقت علقت في اليوم الذي ركبت فيه سيارة الإسعاف في الطريق إلى معبر (أبو سالم) حيث تنتظرنا سيارة الإجلاء، بالكاد كنت أرى وجوه مَن معي من بين دموعي التي كانت تنزف من عينين محترقتين بشظايا الألم بعد أن نجوت من حريق المخيم، لم أرغب بالخروج بهذه الطريقة، مشاعري كانت في ذروة هشاشتها وتبعثرها واضطرابها، كنت أواجه رغبة غسان في الهجرة إلى كندا بتهمة الخيانة والانهزام، فماذا يكون خروجي من غزة ناجية بنفسي إلا الخيانة ذاتها؟ مؤثرة لاستمراري في هذه الحياة التي تبدو نسخة مزيفة لنا نحن الفلسطينيين على احتمالية موت في أي لحظة بات كل من في غزة يتوقعونه، بل يحضرون أنفسهم له. رأيت إحدى الأمهات تعلم ابنها ذا السبعة أعوام كيف يجهز الحليب لأخيه الرضيع، وكيف يغير له حفاظته وتدربه على حمله في حضنه، كانت تجهزه لحمل مسؤولية العائلة إن هي استشهدت، ولكن من يخمن من سيمضي أولًا: الأم أم الابن أم العائلة بأكملها؟

لم يدر في خلدي وأنا أجتر دموعي مودعة اللوحة التي تحولت من كامل البهاء والخضرة والحيوية، وتدافع الناس فيها للعيش والسعادة بأبسط الأشياء التي يملكونها، تحولت صورة سوداء قاتمة تظللها الأدخنة، وغبار جبال من الركام، وأودية من الانهيارات التي سببتها مدافع (الميركافا) ففضّت بكارة الأرض، وجعلت تثمل من دماء أبنائها. لم يدر في خلدي أنني سأواصل البكاء فيما بعد، وأن عهد الشقاء في حياتي قد بدأ، ونسخ كل آلامي السابقة، واختبار القدر لمبادئي ونظرياتي قد حان.

منذ أن وصلت سيارة الإسعاف إلى معبر (أبو سالم)، وصعد الجندي الذي لن أنسى وجهه ما أبقاني الله حية، وهو يصرخ برائحة نفس كريهة، وينادي بعربية مكسرة:(ندى أبو دقة) ويكرر صراخه مطلقًا سيلًا من الكلمات البذيئة.

رفعت يدي، وقلت بصوت أوهنه تعب الطريق، والمكوث في السيارة لساعات:

- أنا ندى أبو دقة.

صرخ في وجهي؛ لأخرج من السيارة وألحق به، ولم يترك لي فرصة السؤال.

وقفت قبالة مجموعة من الجنود، خوذاتهم بتلك النجمات وذلك اللون الأزرق القبيح الذي يتخذونه شعارًا لكيانهم جعلت طوفانًا

يتحرك في أمعائي، لا أنكر أنني شعرت بالخوف الممزوج بالذل والقهر، وأنا أقف قبالتهم وحدي وجهًا لوجه يتفرسون في وجهي، ويقارنون بيانات بطاقتي بما لديهم من أوراق، ويتبادلون بعض الكلمات الرخيصة بينهم، وهم يصرخون بعربية كريهة ليست لغتنا الجميلة التي أعشق مفرداتها:(نتفة مخربة). دارت كلمة نطفة في رأسي، دعوت الله في سري ألا يكون ما أفكر فيه صحيحًا.

فهمت -وهم يقيدون يدي النحيلتين بتلك الأساور المعدنية الثقيلة- أنهم يعتقلونني، صرخت في وجههم بلغة إنجليزية معلنة أنني أعمل مع وكالة الغوث، وأنني موظفة تابعة للأمم المتحدة، وأمتلك أوراقًا تثبت ذلك و...، لكنهم كانوا يصرخون لإسكاتي، أحدهم رفع إصبع يده الوسطى في وجهي، وهو يقهقه ويصرخ بكلمات بذيئة، قالها بالإنجليزية ثم أعادها بلغة أخرى، ربما كانت الألمانية أو الروسية .

لا أذكر أنني مررت ببؤس في حياتي قبل أن يزجوا بي مكبلة اليدين، ومعصوبة العينين في تلك العربة التابعة للجيش، هل قلت سابقًا إنني تألمت أو حزنت، أو شعرت بالأسى من أي شيء؟ ما أشد جهلي. من لم يجلس بين هذه الوحوش البشرية، التي تزكم الأنوف برائحة عرقها وأنفاسها، وبشاعة ما يخرج من أفواهها، واستخدامها أعقاب البنادق لوكز الأجساد مستحثة لها على النزول والصعود بين العربات، لا يحق له أن يتحدث بسوء عن أي شيء صعب مرّ في حياته.

كانوا ثلاثة جنود والرابع قائد العربة، ملامحه تشوبها دماء عربية، خمنت هذا سريعًا من نظرة انكسار خاطفة أذلت وجهه عندما رمقني صامتًا. ربما هو درزي أو من يهود العراق أو من عرب الداخل، الذين باع بعضهم أنفسهم للشيطان بحفنة من الدراهم ومزايا العيش. صوت جعجعتهم الضاحكة أخافني وأنا مغمضة العينين، أحدهم مد يده وأزاح الغطاء عن عيني إلى أسفل ذقني، لأتفاجأ بالآخر يحمل قطعة من ملابس نسائية، يشدها بين يديه ويصرخ مقهقهًا بعبارات قبيحة ومخزية. عرفت أنهم حصلوا على بعض الملابس النسائية من اقتحام أحد المنازل في غزة، كانوا يلتقطون الصور لأنفسهم، ويتحدثون على حساباتهم الإلكترونية وهم يستعرضون قطع الملابس، غنيمتهم من معاركهم مع أهالي القطاع.

حمدت الله في سري أنهم لم يوجهوا عدسات هواتفهم باتجاهي. عرفت أن اعتقالي أمر سري، ولا يريدون إثارة الرأي العام قبل وصولي واستقراري في هذه الزنزانة الكريهة. سألت السجانة عن سبب اعتقالي عدة مرات، وطلبت مقابلة مدير السجن، ولكن الرفض كان حليفي منذ ما يقارب شهرين. ما أدركته مع الوقت أنني مسجونة إداريًّا، والسبب الذي عرفته من ردود (أمادا) ذات البشرة السوداء والشعر المجعد الطويل والنظرات القاسية والوجه المليء بالبهاق، مسؤولة سجن النساء، أنني ابنة الشهيد أبي دقة، النطفة المهربة التي تحدت موتهم، وقتلهم لأبيها في السجن بسبب إهمالهم الطبي، وخرجت إلى الحياة. وساقها القدر للعمل في المكان الذي استعصى عليهم تطويعه، غزة.

الأوراق التي هربتها لي (أنجليكا) كانت نوعًا من تحديها لشخصية أماندا الشرسة، لم تسلم من لسان مسؤولتها، وكانت تعايرها دائمًا بأنها جبانة، وأنها ما كان ينبغي لها القدوم إلى أرض الميعاد، إذا لم تكن مستعدة للقيام بدورها المقدس في مواجهة الأغيار. هذا البوح الذي كانت (أنجليكا) تنفس به عن نفسها بين الحين والآخر.

في البداية كنت أراها على فترات متباعدة، حسب ما يتطلبه مزاجها من نيكوتين السجائر، لكنها أصبحت فيما بعد تأتي بشكل شبه منتظم، توقف كاميرا المراقبة لدقيقتين أو ثلاث، ظننت أنها كانت تستجوبني، لكنني اكتشفت أنه نوع من التنفيس عن المعاملة السيئة التي تتلقاها من الضابطة المسؤولة، والسجانة ومن يتملقنها من زبانيتها. كانت تنعت السجانة (أماندا) بالعقربة التي تعيش بكلية واحدة معطوبة، وتلعن حظها الذي جعلها تعلق بين براثنها، النشوة الغريبة التي تتحدث بها كلما دخنت سيجارتها بشراهة جعلتني أخمن أنها تتعاطى مخدرًا، لا مجرد سيجارة عادية، قهقهت إحدى المرات بصوت هستيري، وهي تقول: إنها ستقتل العقربة يومًا ما انتقامًا لكل من تعرضن لعقوبات بسببها، ولكل من لم يتحملن سوء معاملتها فعدن من حيث أتين.

تجرأت، وسألتها حينها: وأنت، هل تحملت؟

لم تجب، حملت الصحن الذي لم تمتد يدي إلى أكثر من ثلاث لقيمات من مزيج قاتم اللون يرتمي فيه، لمحت حبة فاصولياء تطل كعين سوداء، كأنها تتحداني أن تهفو نفسي لتناول هذا المعجون البارد المهروس، بلا أيّ معالم تشير إلى مكوناته إلا تلك العين .

أجبرت نفسي على ابتلاع اللقيمات؛ ليقوى جسدي ويتحمل ما يدور في عقلي من تلاطم قراءة لغة العيون التي أجيدها، والتي أوقعتني في حب غسان ذات يوم، والآن تجر مشاعري إلى إحساس التعاطف مع هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر، من السخف أن اشعر به وأنا في هذه القطعة من الجحيم. ربما كان تعاطفي معها برهنة مني على أنني ما زلت حية، هذه الإنسانية التي تمتحننا بما نعرفه من آلام الآخرين أحتاجها؛ لتسترخي نفسي قليلًا من حالة التحجر التي أمسكت بتلابيب مشاعري، تساءلت: هل تمر في نفس الحالة الشعورية التي أمر بها؟ أتريد أن تؤكد إنسانيتها بهذا النزر اليسير الذي تقدمه لي على هيئة وريقات وقلم، لتعود بعدها بساعة وتأخذها مني، مخبئة لها داخل قميصها الداخلي، الذي تغطيه سترة ثقيلة؟

الطاقة الوحيدة التي أرى منها النور كانت كوة صغيرة في أعلى الجدار، خمنت أنها تطل على ساحة السجن؛ لما أسمعه من صوت العربات وأصوات متداخلة لا أستطيع تمييزها. شكرت الله أن باب الزنزانة كان مقسومًا إلى جزئين، السفليّ من لوح من المعدن الصلب، تتشعب فوقه من المنتصف حراب حادة من المعدن الثخين، متراصًا بعضها إلى بعض، تسمح للمارين من المهاجع باقتحام ما يفعله سكانها، ولتمكينهم من مراقبة تنفيذ العقوبات المفاجئة التي تصدر عن مديرة السجن، نتيجة تلقيها اعتراضًا أو سؤالًا لم يرق لها من رواد فندقها البغيض، لم أكن أتخيل أن الوقوف في منتصف الغرفة عقاب ناجع إلا بعد أن وقفت ذلك اليوم أربع ساعات متواصلة بعيدة عن الجدار،

كان هذا عقابًا على شيء لا أعرف ما هو، لا خير في السجن يعم، ولكنه مليء بشر يعمم كصورة من العدل في توزيع القهر على قاطنيه.

أمس تم اقتيادي مكبلة القدمين واليدين إلى عيادة السجن، أجري فحصٌ لدمي، لم يفصح أحد عن السبب، كل من في العيادة يعملن بتماهٍ تام مع طبيعة الاحتلال، الممرضات ملائكة الرحمة برتبة مجندات في الجيش، لم أسأل عن شيء لأنهن لا يسمحن بالأسئلة، سحبن العينة من دمي ثم قمن باقتيادي إلى الحمام الذي يسمى زنزانة مرة أخرى، تذكرت مشهدًا لأحد الأفلام الأمريكية عندما كانت إدارة السجن تحرص على عمل سجل طبي كامل لجميع النزلاء، وتحديد زمرة الدم لكل واحد منهم، ومدى قدرة أجهزة جسمه الداخلية، ارتعبت وأنا أسترجع ذلك المشهد، هل يقمن بالشيء ذاته؟ تحديد الأجساد التي قد يسرقن دماءها وبعض أعضائها لإنعاش أجساد جنودهم المصابة؟ نفضت الفكرة من رأسي وأنا أستعيد ما دخلته من حالة تأمل منذ أن وصلت الزنزانة التي تتقيأ نفسها كل يوم.

كانت أنجليكا في جولتها اليومية لتوزيع الصحن البلاستيكي اليتيم الذي تتوسطه تلك الخلطة الغريبة.

طلبْت من السجانة أن تترك الزنزانة مفتوحة؛ حتى يتسنى للعاملة تنظيف الاستفراغ، الذي ملأ أرضها بعد نوبة غثيان انتابتني أمس، الرائحة المقززة تعتقت في المكان، هزت المجندة رأسها وذهبت

تلوك لبانتها، وتغني بصوت لا يقل أثره في النفس عن أثر الرائحة التي تملأ المكان.

بعد انتهاء عاملة النظافة من مهمتها وانصرافها، قالت أنجليكا بلا مقدمات:

هذه الرائحة الكريهة كانت ذات يوم تفوح من جسدي في الملجأ الذي عشت فيه، أجساد الفتيات اللقيطات كانت ملكية خاصة لهم، هنا لا أحد يهتم بجسدي، الكل يريد قهر روحي، لذلك تحملت البقاء، الأرواح لا تصدر عنها روائح كريهة على الأقل.

قلت لها مرتبكة بمشاعري وأفكاري: لا يمكنني أن أتعاطف معك!

- لا أطلب تعاطفك. قالت بنبرة حادة وهي توجه جهاز التحكم نحو الكاميرا، ثم تخرج ورقة مثنية عدة مرات، مشرذمة الأطراف في أعلاها ترويسة باللغة العبرية من ياقة قميصها: هذا كل ما حصلت عليه اليوم.

قلت بلا وعي: شكرًا. ابتسمت وهي تمضي بعد أن أغلقت المهجع، وهي تقول: سأعتبرها تعاطفًا منك. ثم قالت بجدية: لديك خمس دقائق قبل عودة الكاميرا للعمل.

* * *

هاشم مرة أخرى

بعد ولادة هاشم بصحة جيدة، ظننت أن ملامحة التي تشبه والده إلى حد كبير ستشفع لي في قلب غسان، وتغفر لي كل ما يحمله في قلبه من لوم وعتب تجاهي. قال غسان منذ اليوم الأول: إن هاشمًا حصته من هذه الدنيا وأنه لا يريد شيئا آخر. شعرت بالغيرة حينها: أردت أن أسأله كطفلة: وأنا؟ ولكنني لم أفعل. هدأت روعي بمواساة غبية: أنا أم هاشم، أنا الأصل. وأي حب لابنه هو نابع من محبته لأمه.

لم يكن تفكيري صائبًا، أكتبها الآن بكامل اقتناعي: إن حب الرجل لأبنائه لا علاقة له بحبه لأمهم. يتعامل بعض الرجال مع ذريتهم، كما تتعامل الدول المستعمرة مع مستعمراتها، على أنه امتداد لوجودها ودليل لقوتها، وبرهان على تمكنها.

بعد ولادتي بشهر تلقيت كتابًا رسميًّا من المقر الرئيس، بخصم بند الميزات من عقد العمل مع الوكالة بسبب انقطاعاتي المتكررة، وورقة استجواب عن عدم الإقرار بحملي عند توقيع العقد المؤقت

للمهمة في غزة. لم تخل عينا غسان من شعور الانتصار، كأنه يقول: (لقد خسرت أهم سبب من أسباب مجيئك إلى غزة، وهو المكافأة المالية التي ستحصلين عليها بعد انتهاء مدة العقد). لو قالها بلسانه لسمع ما أعددته من جواب:

(لقد كانت المكافأة منذ البداية طعمًا؛ لأجعلك تقتنع بمسوغاتي، لقد كانت الجغرافيا هي السبب دائمًا).

الفتور الذي بدأ يتسرب إلى علاقتي مع غسان أصبح مثل الغاز الذي يتسرب رويدًا رويدًا إلى الرئتين، يزعج قليلًا في البداية لكنه يضيق الأنفاس مع طول الوقت، معظم وقته يقضيه مع هاشم، لم أره متدفق المشاعر كما رأيته بعد ولادة ابننا. هل تغار الأم من ابنها؟ ضحكت وأنا أسأل نفسي هذا السؤال. ضحكت لأنني شعرت فعلًا بالغيرة من ذهاب عاطفته كاملة إلى الملاك الصغير الذي جاء نسخة منه. قلت له محاولة إثارة ما ركد بيننا:

- أصبحت علاقتنا مثل لعبة (الروليت). نظر حينها مستغربًا، وهز رأسه مستفسرًا:

- ومن وضع الرصاصة في مسدس اللعبة؟

- لا أدري، ولكنك تعترف بوجود رصاصة متأهبة بيننا.

قال بابتسامة باهتة كعادته عند تغيير المواضيع:

- اطمئني، لن أصوب المسدس إليك مهما حصل.

- مهما حصل؟ قلت بنية إطالة عمر الحوار، الذي سينهيه تجنبًا لدخولنا في منطقة العمق التي يكرهها.

- مجيء هاشم غفر لك كثير من الأشياء.

قال العبارة وهو ينهض من أمام جهازه يحرك رقبته وذراعيه. خطر لي حينها أن أساله عن سر انهماكه طوال اليوم خلف جهاز الحاسوب، حتى إنه لم يخصص وقتًا لملاعبة هاشم: بمَ أنت مشغول؟ منذ الصباح وأنت منهمك خلف شاشتك، لابد أن حرارة البطارية مليون. وضعت يدي لا شعوريًا على الجهاز الموضوع على الطاولة، فانتفض حينها وأبعد الجهاز عن يدي، ووضعه في حقيبته الخاصة، ثم عاد إلى تمطيط ذراعيه ولكن بتصنع ظاهر هذه المرة.

القليل الذي لم يغفره هو ما جعله يفجعني ذلك اليوم برحيله من غزة، مصطحبًا هاشمًا معه، وهو ما جعله يرتب للأمر حتى قبل أن تنقلب الحياة على عقبيها هنا في غزة.

في الحقيقة لم يكن ما حدث ذلك الصباح انقلابًا فجائيًّا، سبقت الغارة الأولى التي حشد فيها الاحتلال طيرانه ومدافعه إرهاصات ومقدمات كثيرة، للمرة الأولى منذ معرفتي به أرى غسان بهذا الرعب، كان التوتر يتملكه تمامًا ولا ينفك يردد عبارة واحدة: علينا أن نغادر؛ لم تعد غزة آمنة. لم أكترث بتشاؤمه الذي اعتدته في البداية، ولكن الأمر تحول إلى منازعة يومية طوال أسبوع كامل. حاولت تخفيف حالة الانقباض التي كان فيها، هل كنت قوية لهذه الدرجة لتنعكس

الأدوار؟ أو هل كان غسان جبانًا منهزمًا إلى درجة أن يخاف من مجرد تهديدات بتدمير القطاع بعد الأخبار التي تحدثت عن هجوم فلسطيني على مستوطنات الغلاف؟ كان صراخه يعلو كل يوم وهو يتهمني بالجنون والغباء، والوطنية الكاذبة على حساب حياة ابننا هاشم، تمادى أكثر في ثورته التي هاجت بقوة حينها، وأخرج ما كان يختزنه في أعماقه، ومزق قلبي بتلك الكلمات التي يحسن تمامًا انتقاء الحاد والمسموم منها:

-تريدين قتل هاشم كما قتلتِ ريتا؟ لن أسمح لك هذه المرة، سأغادر غزة، فإذا أحببت الخروج معي فجهزي أغراضك قبل أن يغلق المعبر ونعلق هنا. منذ زواجنا تبادلنا كثيرًا من الاتهامات ونعتنا بعضنا بمعجم من الأوصاف، لكن أصدق ما وصفني به هو الغباء. لم أكن لأعبأ كثيرًا بسورة غضبه، لمعرفتي أنه سيدفع الثمن كاملًا بعد أن يهدأ، من جراب الكلام الذي يتقنه الشعراء؛ تفننه في كلمات الاعتذار، ومحاولة ترقيع الموقف بعد معظم مواقف هيجانه، ودفع المركب بكل قوته ليسير، هذا ما جعل ردود أفعالي على كلامه تقل مع الأيام وتتخذ طابع المهادنة، وهذا ما جعلني أتعامل بغباء مع نظرات عينيه، التي كانت مختلفة تمامًا عن كل مرة، هل كنت أحبه إلى هذا الحد؟ الحد الذي يعطل حاسة الأنثى في اصطياد نيات الرجل المخبأة في أعماقه، هل كنت واثقة به إلى الحد الذي جعلني أستبعد تمامًا أنني سأعود من جولتي في مخيم المغازي ذلك اليوم على قصاصة ورقية

مرمية على الطاولة، فيها عبارة جعلت الجدران تدور من حولي، وكل جزء في جسدي يدور معها، والنفس يضيق ويضيق، والانقباض يتعارك مع أمعائي، ليتدافع ما في جوفي شلالًا متناثرًا على ملابسي والأرض؟

صرخت بأعلى صوت: لا يا غسان، لا تفعل هذا بي. كنت أضرب كفيّ على الطاولة مرة، وأمسك رأسي مخافة أن يسقط عن جسدي مرة أخرى.

كلما أعدت قراءة ما تركه لي من تركة: (سأنقذ هاشمًا، الحقي بنا إذا أردت، غادرنا غزة).

أمسك الهاتف كمجنونة حقيقية هذه المرة -والقشعريرة تنفضني كما نفض غسان يديه مني تمامًا وقرر المغادرة مع ابني، الذي تجرعت مرارة أشياء كثيرة في الحياة لأجله- أتصل به لكن الرقم لا يستقبل اتصالي، كيف يصبح رقم هاتفه بين ليلة وضحاها خارج الخدمة، هل خرج فعلًا من غزة؟ هل ذهب إلى منزلنا في الضفة، أو سافر إلى كندا؟

الأسئلة تنهشني من كل صوب، والغثيان يضرب معدتي مرة أخرى، لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن أسمع جرس المنزل، كأنه كان تنبيهًا لي أنني ما زلت حية، وأنني ما زلت في هذا العالم، ركضت إلى الباب، لعله غسان، ربما كانت دعابة من دعاباته.

فتحت الباب وأنا أرجو أن أرى غسان وهاشمًا، لكنها كانت خديجة جارتي التي توطدت علاقتنا كثيرًا بعائلتها، وأصبح منزلها

حضانة لهاشم فترة غيابنا في العمل. صرخت بأعلى صوتي: أين غسان؟ أين ابني؟ لكن صوت دوي هز المبنى جعل خديجة تهرع عائدة إلى منزلها. هل هو يوم القيامة؟ أهذه أهوال اليوم الآخر؟ في دقائق كان كل شيء يتهاوى، لا أعرف ما الذي يتساقط فوق رأسي، خرجت من المكان مع البقية الذين التهمت أرجلهم درجات السلم، كان نفسي يضيق والتراب يتحول إلى غيوم تحجب الرؤية، المبنى ينهار فوقنا، كان كلَّ ما أفكر فيه تلك اللحظة هاشم، صورته في مخيلتي جعلتني أتقدم الجميع، خيل إلي أنني خرجت إلى الشارع، لكنه لم يعد شارعًا، تحول إلى مكان لا يمكن وصفه إلا بمقبرة يتراكض الأموات منها في كل صوب، رأيت نور ابنة خديجة، كانت تبكي وتتعثر خطواتها الصغيرة، والفزع يعبث بملامحها الجميلة، هرولت نحوها، لكن قطعة كبيرة من الخرسانة المتساقطة من المبنى سبقتني، وألقت بثقلها على قدمها، دارت تفاصيل المكان بي، وغطى السواد عينيّ بالكامل، وظلت يدي ممسكة بنور.

كل ما أذكره أنني كنت ملقاة على سرير في مكان يعج بالأسرة، وحركة الأقدام والتأوهات وبكاء أطفال، وصوت أنثوي ينادي :

- ندى، ندى صحصحي. أردت أن أتكلم لكن لساني كان ثقيلًا، نظرت في وجهها (المغبش)، وبدأت صورتها تتضح شيئًا فشيئًا، إنها سارة.

نعم، أقسم إنني فعلًا تمنيت لو أنها لا تعرفني ولا تعرف اسمي؛ حتى لا تصدمني بأنني في طريقي لاستعادة ما غبت عن إدراكه من قصة ألمي الجديدة.

ملحوظة: إذا وقعت هذه الأوراق تحت يد غسان أرجو أن يعتبر كل كلمات الحب الواردة فيها محض إسراف في المشاعر من امرأة تم تهريبها من الزنزانة نطفة، وكبرت وهي تبحث عن كتف تستند إليها، ولأن غسان كان الكتف الوحيدة التي ملت بحملي إليها ثم استل نفسه هاربًا تاركًا رأسي في الهواء وظهري بلا جدار فهو آخر من أتمنى أن تلامس عيناه كلماتي...

* * *

الفصل الثاني

(المعجزات ما زالت تحدث)

الحب سقراط القلوب

وقهوةٌ أحلامها السمراء

بنٌّ لم يجف.

الحب عين الأمنيات

تبيت ليلًا لا تنام ولا ترفُّ.

الحب رحّالٌ بأرض الله

ما قالت له الطرقات

قف!

هبة أبو ندى، شهيدة غزة!

ابن اليهودية

ما أشد حزن الشاعر إذا أراد اقتراف الشعر، فاستعصت عليه الكلمات القادرة على حمل ما في قلبه. وما أشد بؤس الكلمة وهي تُرفض من الشاعر؛ لأنها لا تليق بحمل ما في قلبه من ألم يقسو عليها، كلما انطرحت أمامه بإغراء ويغض بصره عنها، وما أقل شاعريتي وموهبتي التي كنت أحسبها قد تعدت مرحلة الموهبة، ودخلت مرحلة التدفق الشعري الذي لا يوقفه شيء، ولا تستعصي عليه المعاني والألفاظ.

أقف على أعتاب القصيدة منذ أن قررت أن أنجو بابني من حرب كنت أرى أنها واقعة لا محالة، عندما تشبثت بالبقاء واتهمتني بكل ما تعرفه من مفردات الجبن والخنوع والخوف. تستعصي عليّ القوافي، وتتآمر على ضعفي عبارات الشعر، وتعلن تمردها الكلمات التي كانت تترامى في طريقي قبل ذلك دون خجل، تهب نفسها لسطوة الشعر الذي امتلكت زمامه باكرًا، ولكنه يتفلت الآن مني، يتحرر من قدرتي على ترويضه وتطويعه ودق أعناق قوافيه.

الاتصال الذي تلقيته أمس انتشلني من المحاولات الفاشلة لاستكتاب قصيدة ما، أبثها بعض لواعج صدري وهموم نفسي، منذ أن عدت من غزة وأنا أتجرع ألوانًا منها. قالت المتصلة إنها تريد صندوق بريد؛ لتتمكن من إرسال شيء مهم. سألتني عن اسمي: أخبرتها باسمي، والتوجس يملؤني. قالت: إنها ستسألني بعض الأسئلة؛ لتتأكد أنني الشخص الصحيح، لم أعرف حينها هل كانت تعبث بي بلغتها العربية المتكسرة؟ لكن الفضول دفعني لمسايرتها.

كانت تقول كلمات مقتضبة وتترك لي مهمة تفسيرها، هكذا حددت طريقة اختبارها لي، والتحقق من أنني أنا.

جاريتها فيما تريد، فلست مضطرًّا إلى أن أعطيها شيئًا واضحًا في النهاية إلا بالقدر الذي أراه آمنًا.

قالت: (هاشم)

أجبتها على الفور: ابني.

ابتسمت.

هل تستغفلني؟ تختبرني باسم ابني الذي يعرفه الجميع.

- قالت مرة واحدة: (ندى، الوكالة، ريتا، جنين، نطفة مهربة، الباذان، غادة السمان).

جميع ما ذكرته كان عاديًّا ومتاحًا للجميع إلا الاسم الأخير الذي لا يفهم معناه إلا أنا؟

سألتها باندفاع: أين هي، أين ندى، من أنت؟

قالت: سأرسل لك أوراقها، ستخبرك بكل شيء، سأغادر غدًا إلى ليتوانيا.

قبل أن تنهي كلامها ذكرت أنها تخالف رغبة ندى بإيصال الأمانة إلى فتاة تدعى باسمة، وقبل أن أسألها قالت: إنها الملحوظة الأخيرة التي كتبتها ندى، جعلتها تشعر أن غسان أهم شخص في حياتها.

بعد أربعة أيام عصيبة من التفكير تلت خمسة أشهر من العذاب النفسي الذي كان يجلدني بسياطه، قلب اتصالها كياني قلبًا، منذ مغادرتي مع هاشم ذلك اليوم، وأنا أتحسس لسعاته كل يوم، عقلي يكاد يتوقف ويملؤني حنقًا كبيرًا على عنادها الذي جعلها تتمسك بالبقاء، رغم أن الوضوح كان سيد الموقف، إلا أن الثمن الذي دفعته كان غاليًا، وربما سأعيش عمري أدفعه من كرامتي رجلًا ترك امرأته خلفه، لم تكن امرأة عادية، كانت عقلًا جميلًا في البداية، أحببته كثيرًا، أحببت كلامها الشاعري عن الوطن، أحببت تدفقها في حب ما تسميه جغرافيا الوطن، لكنه مع الوقت أصبح تعنتًا ومعاندة، وحالة من الصدام مع الواقع الذي لم نصنعه، بل هو من صنعنا وأعمل يده في تفاصيلنا، الواقع الذي ولدت فيه لأب فلسطيني وأم كندية من أصول يهودية. الحقيقة كانت مرة جدًّا لأتجرعها عندما بدأ وعيي يتشكل، أن أولد لأم يهودية وأب فلسطيني، يعتبر نفسه مناضلًا على

طريقة الأحزاب الشيوعية التي انضم إليها باكرًا، لم يكن شيئًا يمكن لشخص مثلي أن يسعد به كثيرًا.

شعور النقص في هويتي الوطنية لازمني جزءًا كبيرًا من حياتي، عندما كنت طالبًا في المرحلة الثانوية في أريحا، كنت أشعر بوخز خفي في قلبي كلما سمعت أحاديث الشبان وافتخارهم ببطولات عائلاتهم، وفخرهم بأمهاتهم التي تبرعت كل واحدة منهن في إتقان شيء ما يؤرخ لتراث فلسطين.

هذا السر لم أشأ أن أطلعها عليه طوال حياتنا معًا، خشيت على علاقتنا من شبح الانفصال لو أنها عرفت أن أخوالي يهود؟ عائلة أمي لا أعرف عنها إلا ما قاله أبي، ولا أثق في صدق ما قاله كاملًا. كيف أصدق من رضي الارتباط بفتاة أجنبية، دون أن يكترث بجذورها التي تمتد إلى من يحتلون بلاده، ويشردون أهلها.

حديثها عن الوطن والأرض، وتعلقها بالخريطة الفلسطينية الممتدة كان أكثر ما يعجبني في شخصيتها، ويؤلمني أيضًا. هي الصورة الأخرى التي تمنيت لو أكونها، تمتلك مقومات الفخر بنفسها، النطفة المهربة للأسير الذي تحدى صولجان الظالم وأسوار حصنه، أما أنا فإنني متى فكرت في تجميل صفتي وتعريفي لنفسي فإنني ابن يهودية.

بعد أن وصلت أوراقها عبر البريد أخذتها إلى المنزل، لم أعرج على المربية التي كنت أضع هاشمًا عندها ذلك اليوم، أبلغتها أنني سأتأخر في العمل، قالت إنه نائم ولا مانع من بقائه إلى حين مجيئي

لأخذه. شكرتها وشكرت الله على وجود أمثال هذه المرأة الطيبة، التي ساعدتني كثيرًا في رعاية هاشم في حضانتها المنزلية. قالت إن زوجها توفي في حادث سير واضطرت إلى إعالة ولديها. حمدت الله أن الناس في وطني ما زالوا يموتون بأسباب مشابهة، لتلك التي يموت بها البشر الطبيعيون.

اختليت بالأوراق على ذات الأريكة التي كانت تجلس عليها في هذا المنزل، قبل زمان ليس بالبعيد، قرأت ما كتبته أناملها كلمة كلمة، تجرعت حروفها، وصخرة كبيرة تجثم على صدري، الخط المرتجف الذي يجعلني أتوقف كثيرًا عند بعض الكلمات، مدققًا في حروفها غير الواضحة، جعلني أتخيل ما تعانيه من ضعف، وما يعانيه مداد القلم من شح، وضغط لمرات عدة حتى يكمل حبره حروف الكلمات، الكتابة المتقطعة تظهر كم ارتجفت يدها مستعجلة تفريغ ما لديها، الخط مضطرب وخائف، وهذا يمزق قلبي. لم تكن ندى لتكتب بهذه الطريقة القبيحة، إلا تحت تأثير قهر يطمس جمال خطها، لكن روحها رغم ذلك حومت حولي، وصورة وجهها سيطرت على عقلي.

قرأت قصتنا معًا، قرأت حبها لي، معاندتها، إصرارها الذي جعل حياتنا تمتلئ بحواجز، كنت مستعدًا لاجتيازها بما يملأ قلبينا من رغبة بالاستمرار، ولكن حياتنا تعرقلت بفعل تلك الحواجز الطيارة التي كانت تباغتني بها، فتجعلني عاجزًا عن اجتيازها دون أن تكون الخسائر فادحة، تمامًا مثل كل حاجز طيار نصبه العدو فجأة في

جغرافيتنا الفلسطينية، ليصبح كمينًا يصطاد به من يقلقون من تمدد جسده في أرض تشتاق إلى حبات العرق من أصحابها، ملأت ندى حياتنا بهذه الكمائن بدون وعي، ولكنني فقدت السيطرة عندما كان هاشم هو الثمن الذي قد أدفعه، تحت وطأة ذلك الهوس الجنوني بالبقاء رغم رائحة الموت التي كانت تبث نفسها شيئًا فشيئًا.

آه يا ندى، جعلتني مثلك دون أن أشعر، أتحدث عن جغرافية الوطن الذي اعتبرت نفسي دائمًا مذنبًا في حقه، هل يحق لابن اليهودية أن يتحدث عن وطن وانتماء وأرض، وكل تلك المعاني التي نثرتها حولي وفي حياتنا، كبلتِني بها دون وعي منكِ، هل سيقبل الوطن دفاع من يتشح بخيانة لم يكن له يد فيها مثلي.

لم أحب أمي مثلما أحببت ندى، ولكنه حبّ اصطدم دائمًا برغبتي أن تكون حياتنا مرممة لكسر في داخلي. أما هي فالإصرار على نكء تلك الأشياء معزوفتها التي لا تملها، أولها اسمي الذي أكرهه، اسمي الذي حملني عبئًا كبيرًا طوال حياتي، اسمي الذي لم أعرف مسوغًا واحدًا يجعل والدي يفكر فيه سوى رغبته المفرطة في إظهار نفسه أمام الحزب شخصية وطنية عميقة وثائرة، فلا شيء أسهل من بطولة جاهزة نتسلقها، ونعتلي صهوة جوادها حتى لو كنا أقزامًا لا تطال أيدينا الزمام.

أصدقائي الذين يتندرون بشكلي الوسيم، ويقولون أنت أجمل من غسان كنفاني الأصلي يا رجل. كانت مزحة كريهة، تعيدني إلى

حقيقة أن في دمي شيئًا من دماء أولئك الذين حاربهم كنفاني في كتاباته، المرة الوحيدة التي أحببت فيها اسمي يوم التقيت ندى للمرة الأولى. (إذا كنت غسان كنفاني فأنا غادة السمان) الجملة التي جعلتني أحبها، وأعرف الكثير عنها، أعرف كم هي مثقفة وكم هي حالمة، وكم يمكنها أن تحبني الحب الذي يعوضني عن كل شيء، كل شيء حتى أمي التي لا أكاد أذكر وجهها بعد آخر لقاء بيننا في مدينة (كالغاري) الكندية، وأنا في الثانية عشرة من عمري، يومها قالت لي: سأتزوج وأسافر مع زوجي إلى ألمانيا، كل ما أستطيع تقديمه لك هو جنسيتي الكندية، ستكون سلاحًا بيدك.

عندما كبرت أدركت أن هذا السلاح الذي منحته لي أمي اليهودية كان موجهًا تجاه بلد أنتمي إليه. حاربت الفكرة كثيرًا، جاهدت لإخراجها من عقلي، لكن لقائي بندى جعلني أفكر في استخدام هذا السلاح؛ لأبني حياة سعيدة ليس فيها حواجز، ولا خوذات جنود، ولا تقسيمات بين مناطق أ وب وج.

في حياتي لا أذكر أنني بكيت بحرقة، إلا حين ودعتني أمي في مطار (كالغاري) الكندي، أحمل الجنسية الكندية، السلاح الذي ظنت أنه كل ما تقدمه أم يهودية لابنها العربي.

المرة الثانية التي سأبقى أذكرها ما حييت، عند قراءة ما خطه قلم ندى المرتج، وصلت إلى الجزء التي تتحدث فيه عن اعتقالها، الزنزانة والسجانة والمجندة التي تزودها بالأوراق، لم تجف دموعي، ولم

يتوقف نشيجي، الرجل الذي لم يبك في حياته يبكي الآن كالطفل، رائحة الاستفراغ الكريهة في زنزانتها أشتمها في أنفي واضحة تمامًا، وقوفها لساعات دون الاتكاء إلى جدار فجر قلبي بالألم، وأنا أتذكر حبها للاستناد إلى كتفي، وفرحتها عندما أمسك بيدها لأعبر بها الشارع.

ضربت رأسي بالجدار، لعل الأفكار المؤلمة تقفز منه أو تتحطم متلاشية، نظرت في المرآة التي بقيت كما وضعتها بيدها قرب باب المنزل، سائل أحمر لزج ودافئ ينساب من على جانب وجهي. احتقرت نفسي كثيرًا وأنا أنظر في هذا الشخص الذي لا أعرفه، هل هو أنا؟ غسان كنفاني المزيف، ابن اليهودية، الذي تخلى عن زوجته. أقسمت لمن يقف في المرآة إنني لم أقصد أن أتخلى عنها، ولكنها الطريقة الوحيدة التي اعتقدت أنها قادرة على إجبارها على العودة، والخروج من غزة، راهنت على حبها لي وتعلقها بهاشم طفلنا الجميل، ملأت الثلاجة بالأغراض، نظفت المنزل، اشتريت هدية لها، موقنًا من أنها ستلحق بنا مستعجلة. لكن الحرب أفسدت رهاني، وجعلتني أتجرع كأس انتقاصي لنفسي ورجولتي، خمسة أشهر وأنا أتقصى أخبارها كالمجنون، كلمت الوكالة في رام الله، راسلت منظمات العالم كلها، حاولت أن أسرّع طلب منحها الجنسية الكندية الذي أخفيته عنها، وكنت قد تقدمت به للقنصلية في القدس، دفعت المبلغ الكبير الذي اشترطوه ضمانة لكونها لم تعش في كندا، لكن شيئًا لم يسعفني في تهدئة النار التي تشتعل في داخلي، ونظرات هاشم وخطواته المتعثرة الأولى،

وبكائه المتواصل كلما أخذته من منزل المربية الذي ألفه أكثر من منزل والديه، واتصالات أبي ليسب ندى مرة، وينتقد رأسها العنيد مرة أخرى وشخصيتي الضعيفة أمامها، أو ليقنعني بإحضار هاشم لترعاه زوجته فاطمة.

لا أعرف كيف مرت الليلة عليّ، ولا كيف بزغ نور الصباح، صوت أذان الفجر يشق السكون، ويشق صخب عالمي الداخلي، لم أكن أعرف أنني سأتألم كل هذا الألم عندما أعثر عليها، حتى موتها لم يكن ليقتلني كما قتلني اقتيادها إلى السجن الإداري، منه خرجت فهل كان لزامًا أن تعود إليه؟ اكتشافهم أن الاسم المدرج على قائمة الأمم المتحدة للنجاة، هو اسم ندى أبو دقة ابنة الأسير الذي تحداهم، وأخرج جزءًا منه إلى الحياة، بعد أن أحاطوه بالموت من كل جانب أضاف جريمة إلى جرائمهم. أرسلت لها عدة رسائل منذ اندلاع الحرب، وصور الفاجعة التي ألمت بغزة تغزو الشاشات. لم ترد على رسائلي، اتصلت لكن الاتصالات لم تكن متاحة في معظم الأحيان، أرسلت رسائل لفرنسيس والمجموعة التي ذهبت معنا إلى غزة، لا أحد يجيب. الاتصال الوحيد الذي بلّ جفاف ريقي كان مع إحدى منظمات الإغاثة في خان يونس، أرسلت لهم اسمها وصورة لها، بعد أيام تواصل معي أحدهم تواصلًا مستعجلًا؛ ليخبرني أنها موجودة في مخيم النازحين.

الكلمات القليلة أعادت الحياة إلى روحي وجسدي، كتبت رسالة مطولة أستفسر عن مكان وجودها وتفاصيل ما يحيط بها من

ظروف، هل هي مصابة؟ هل الوضع في المخيم خطير؟ هل هناك أمل بإخراج موظفي الأمم المتحدة؟ لكن الإجابات علقت تحت قصف الدبابات التي كانت تتوغل يومًا بعد يوم، لم يرسل لي (حمزة) أي شيء يطمئنني، انقطع الاتصال به بعد أخبار حريق المخيم، الأخبار التي تناقلها الجميع عن حريق مخيم النازحين كانت لهيبًا يشتعل في رأسي، أمنع مخيلتي عن تكوين أي صورة لها وسط النيران. هذا الاحتراق الذي نهشني كان عقاب الله لي على تركي لها. هذا ما أيقنته، لكن المعجزات تحدث، ستنجو بمعجزة. هذا ما كنت أقوله لنفسي وقلبي يتكور كأنه في قبضة مارد، ينفذ فيه قائمة رغبات مؤجلة من القسوة.

❊ ❊

نطفة في قلبي

مضى يومان على قراءتي لما كتبته ندى في زنزانتها، استيقظت اليوم وكان أول شيء أفعله الاتصال بزوجة أبي، طلبت منها أن ترعى هاشمًا جيدًا؛ لأنني سأكون مشغولًا عنه في الأيام القادمة، أخبرتها أنني لا أريد التحدث مع أبي في الموضوع تجنبًا لاحتدام الكلام بيننا، الشيء الوحيد الذي يجعلني ممتنًا لوالدي في هذه الحياة أنه ارتبط بهذه المرأة التي لم أرَ منها إلا المعاملة الطيبة على الرغم من علاقتي المتوترة به، وددت لو أخبرها أنني تمنيت لو كانت أمي، ووددت لو تجيبني عن سؤال قرع جدران عقلي دائمًا: ما الذي يجعل امرأة ترى الله في كل شيء حولها ترتبط برجل يساري مثل أبي، الذي لم يعد يتفاخر كثيرًا بأفكاره الإلحادية في المرات التي نلتقي فيها، ربما يلعب تقدم الإنسان في العمر دورًا في إعادة ضبط بوصلته عندما يشعر أن الموت يترقب سقوط ورقته.

تركت هاشمًا في منزل والدي، وتجنبت الدخول معه في أي جدال. لمحت فرحة في عينيه برؤية هاشم، هل دمعت عيناه؟ قطرة

ندى صغيرة لامعة تنغرس في حدقة عينه، تلوح من تحت نظارته الثخينة. سألني: (ماذا ستفعل من أجل ندى؟ أعرف محاميًا ماهرًا يمكنك الاعتماد عليه، وعليك أن تتحقق من السجن الذي توجد فيه، على الأغلب هي موجودة في سجن عوفر)، أخبرني أن صديقه المحامي رشيدًا حدثه أنهم حولوا جميع المعتقلات الإداريات إليه منذ بدء هجومهم على غزة. يفسحون مكانًا للمعتقلين الجدد، قالها مستهزئًا.

شيء ما في كلام والدي ونبرة صوته أعاداني إلى سن العاشرة، عندما أخبرني أنه سيرسلني إلى أمي في كندا بسبب قضية الحضانة التي رفعتها، يومها بكيت بكاء طفل يشعر أنه كرة تتدافعها الأقدام الراكلة من كل صوب، بدا متماسكًا وهو ينهي إجراءات مغادرتي إلى الأردن عبر الجسر؛ ليوصلني بعدها إلى المطار مباشرة، قال إنها جهزت كل الأوراق المطلوبة، لم ألتق بأمي في المطار، سافرت وحيدًا خائفًا منكمشًا على مقعد الطائرة المتجهة إلى مطار (كالغاري)، وحدها مضيفة الطائرة كانت تبتسم في وجهي كل حين، عرفت بعدها بسنوات أنها كانت ابتسامات مدفوعة الأجر، هكذا تسير الحياة؛ فكل شيء بثمن.

أوقعني اهتمامه بالسؤال عن زوجتي - التي لم يكن راضيًا عنها منذ البداية - في شباك الحنان الأبوي الذي افتقدته كثيرًا، ظننت أنني سأنهار أمامه، وأرتمي في حضنه وأبكي بكاء ذلك الطفل الذي كنته.

لكن كلماته كانت أسرع في دفعي خارجًا: إذا احتجت أي شيء، فاتصل بالأستاذ رشيد؛ فله خبرة في المحاكم.

لحقت بي فاطمة وهي تحمل هاشمًا في حضنها، أخذته في حضني طويلًا، كأنني أعوض نفسي عن حضن والدي الذي لم أجرؤ على الارتماء فيه، قبلت وجهه ويديه، كانت عينا ندى تنظران إليّ، سأقول لها بعد أن تعود: إنها كانت مخطئة، هاشم يشبهها ولا يشبهني، هذا الدفء الذي يشع من عينيه، ووجهه البريء شيء لا أظن أنني أمتلكه.

وعدتني زوجة أبي أن تعتني بهاشم، وسالت دموعها وهي تقول: الغالي ابن ندى البطلة.

هكذا اختصرت هذه المرأة الطيبة حالي وحال ندى.

هي البطلة، وأنا من تقزم حتى أصبح هامشًا؛ من يدخل سجون الاحتلال بطل في العرف الاجتماعي للفلسطينيين، اليهود لا يتتبعون إلا من يتحدى وجودهم الزائف، ولو كان أصله نطفة مهربة.

منذ بداية قصتي معها وهي مؤهلة لأدوار البطولة أكثر من زوجها الذي أرهقه الانكفاء على صراعه الداخلي مع نفسه، ومع والده، ومع تركته من أمه التي ولدته.

راجعت أحد المحامين، وطلبت منه أن يتكفل بقضية ندى. كانت المهمة الأولى أن نعرف تمامًا في أي سجن هي بعد أن رفضت فتاة الأوراق الإفصاح عنه. قدمت إجازة طويلة من العمل، أردت

التفرغ لإنقاذها. أزور هاشمًا في الأوقات التي أعرف أن والدي لا يوجد فيها في المنزل، لكنه كان ينتظرني اليوم على غير عادته. سألني محتدًّا: ألم تعرف شيئًا عن ندى، أين زوجتك؟

طوال حياتي أهرب من الاصطدام معه، أحاول القيام بكل شيء على الوجه الذي يبقيه هادئًا، عندما تزوج من فاطمة في السنة التي أرسلني فيها إلى أمي بقيت مسالمًا كما لا يليق بطفل في العاشرة، لم أظهر غضبي من القسوة التي تظهر في عينيه، سمعته يقول لعمتي على الهاتف إن ولادتي غلطة، لكنها حدثت ولا يستطيع أن يتخلى عن ابنه مهما حصل. لكن حصل ما أجبره على التخلي رغم ذلك الوعد على الهاتف، رفعت أمي قضية لحضانتي في محاكم بلادها، ربحت القضية دون أي جهد أو نزاع بعد خروجها من حياة أبي بأعوام قليلة، عادت لتشتبك معه من جديد بحجة الثمرة التي تشاركا في غرسها، الابن الذي ورث شيئًا من وجه أمه، وبعضًا من دمائها، والكثير من وسامة أبيه، واسمًا كرهته دائمًا منذ أن عرفت صاحبه الحقيقي (غسان كنفاني)، تساءلت كثيرًا: لماذا مرغ أبي اسم كاتب وطني، ومنحه لطفل تسري دماء أمه اليهودية في عروقه؟!

أخبار المجازر في غزة تملأ الفضائيات، وتوقعات حرب عالمية ثالثة أصبحت مما يلوكه العوام في أحاديثهم غير عابئين، الحرب قدر محتم لا محالة بالنسبة إلى الكثيرين من أبناء فلسطين. هذا الجنون الذي يقود العالم أصبحت أكثر إيمانًا بحقيقته من ذي قبل، منذ أن وصلتني

تلك الأوراق وأنا أعيد قراءتها كل ليلة عندما أخلو بنفسي بعد يوم شاق بين المحامي والمحكمة ومنظمات إغاثة الأسرى، أبحث عن بصيص أمل ينقذها، سيرة حياتنا التي سجلتها مبعثرة، وغير مترابطة بشكل كبير في تلك الأوراق عشتها حقيقة. ولكن قراءتها مكتوبة بخطها المرتجف في سجون الاحتلال هزّ كل الثوابت التي أمضيت حياتي أنافح عنها، رويدًا رويدًا بدأت فكرة الانهزام التي كانت تتملكني بالتضاؤل والانكماش. حرقة لاذعة في قلبي جعلتني أكتب في أعلى الأوراق عنوانًا خطر لي أنه ما أشعر به الآن بعد كل ما مررت به، وبعد ما خطته يدها في زنزانتها البغيضة: (نطفة في قلبي؛ قلب غسان كنفاني).

على قدر ما كنت أمقت ترديدها لكلمة الجغرافيا، أشعر الآن أنني متشبع تمامًا بها، هل كنت مستعدًا للمواجهة مع إرث كبير من الانتماء الذي يحمله أبناء هذه الأرض؟ أو أنني تقوقعت على خوفي من أن تكتشف ندى يهودية أمي؟ أسأل نفسي الآن: لماذا لم أجرؤ على قول تلك الحقيقة التي أراها الآن تافهة، ولم تكن تستحق ذلك الأرق الذي سببته لي؟ لماذا لم أعلن أنني أيضًا ابن هذه الجغرافيا وأنتمي لها؟ كيف أمكنني أن أعيش منزويًا هكذا تحت وطأة ذلك الشعور بالنقص في وطنيتي؟ لماذا خبأت عنها كثيرًا من قصائدي الوطنية، وأبقيت لها تلك التي كتبتها مجاملة لأمسيات شعرية هزيلة، وبعض أشعار التمرد على الوطنية المسطحة تلك الأشعار التي لم يكن يخفى عليّ ازدراؤها لها، وربما لي؟ علقت ممازحة على خاطرة كتبتها على حسابي على

الفيسبوك أسميتها (القاع): من الجيد أننا كما ذكرت يا غسان في القاع؛ حتى لا نسقط أكثر من ذلك.

هذه القصة التي كتبتها ندى في معتقلها جعلتني أعرف كيف سارت الأمور بيننا، كيف استمررنا في تشارك المركب على الرغم من تناقضاتنا واختلافنا. هل على كل مختلفين أن يتفرقا؟ وهل كان الأسلم لي ولها ألا تتقاطع خطوطنا؟ العقل والقلب، وماذا يمكن أن ينتج عن اجتماعهما معًا بكامل سطوتهما، وبكامل حرب الواحد منهما على الآخر، وبكامل استهزاء هذا من ذاك، وبكل تناقضات تعاطيهما مع الحياة، ومواقفها المتلونة بالفرح والحزن، والأسى والخذلان والسعادة؟ ماذا سينتج إلا ما كانت عليه حياتي مع ندى؟

الحقيقة الواضحة الجلية لا أدعي أنني أمتلكها، أو أمتلك تفسيرًا لجميع ما يكتنفنا من متناقضات، لكنني أملك سنوات حياتي التي جمعتنا معًا، هذه هي المعجزة التي حدثت بيننا، آمنت أخيرًا أن المعجزات ما زالت تحدث.

أصبحت أتواصل يوميًّا مع المحامي، الذي اكتشفت أن والدي كلفه فعلًا بمهمة متابعة موضوع ندى، لم أكلمه في الأمر، تلقيت الخبر منه بشعور متناقض، في عقلي قبول لهذه المبادرة المنطقية، فهو في النهاية ابن هذه الأرض، كما أن ندى زوجة ابنه وأم حفيده، رفضه لندى بدا لي مسوغًا لشخص مثله تشبع بالفكر الشيوعي، الذي أوصله إلى حالة من ازدراء أبناء المخيمات، غير الجديرين ببريق الثورة

الناعمة التي ظلت شعار من لا يريد المواجهة، مع الجاثمين فوق الأرض ويؤدون الأحلام. وجانب آخر هناك في عمق قلبي يستهزئ قائلًا: آلآن وقد عصيت؟ أين كان عقلك يوم تملكتك نزوة شاب متحرر من كل قيد، فلم يجد من يهبها ولدًا إلا أمي اليهودية.

قررت أن أنشر ما كتبته ندى، عاهدت نفسي أن أبقي كلماتها كما هي، لن أحذف شيئًا مما خطته في قصاصاتها المبعثرة، لن أهتم لتسلسل القصة، سأنشرها بنفس ترتيب الأرقام في الأوراق، سأغفل التواريخ كما أغفلتها، سأترك قصتها نقية مرتجفة قوية كما كتبتها، لن أصحح أي فكرة لا تعجبني، سأنشر لومها وتقريعها لي، ووصفي بالخذلان، وتساؤلاتها إن كنت من زمرة الخائنين، وخيباتها الكثيرة وحبها الكبير، ومحاولاتها الأنثوية لإخضاعي لأفكارها، وانتصارها عليّ وسحبي معها إلى غزة بحجة الاكتئاب، الذي احتاجت مغامرة مختلفة تخرجها منه، ما عاشته في مخيم النزوح، القهر الذي عجزت الشاشات بكل ما تبثه من صور البؤس والموت المجاني عن تصويره على حقيقته، والقهر الذي عجز قلمها عن وصفه والخوض في تفاصيله، لكن ندى جعلتني أعيشه تمامًا من خلال كلماتها النازفة.

هذه المغامرة كلانا لم يكن يعرف أنها ستقلب كل شيء حولنا، ليس حياتي مع ندى فحسب، العالم اليوم يغير جلده ووجهه بفعل ما يحدث في غزة، القضية تطفو بقوة هذه المرة على سطح الأخبار، طرأت تغيرات على طبيعة المواجهة، أصبح جزء منها هناك، في الغرب الذي

بدأت الغمامات تتلاشى عن عيون أناسه العاديين، الذين لم تتمكن الآلة الإعلامية العالمية المتواطئة مع المجزرة من طمس الحقيقة إلى الأبد. سأترك قصتها كما هي، ولكنني سأكمل الجانب الآخر للقصة، الجانب الذي لا تعرفه ندى عني، لن أستفيض كما فعلت هي، سأكتب ما تجود به نفسيتي المرهقة، وأعصابي المتهالكة، وخلوتي كل يوم مع أوراقها بعد نهار طويل من البحث والتقصي، وإجراء الاتصالات، وإغلاق الأبواب التي لا تريد أن تتورط في قضية تخص ابنة أسير.

هذه الأبواب التي أوصدت في وجهي جعلتني أفهم ما قالته لفرنسيس عن النظرة المبالغ فيها لنا، ممن اعتادوا المراقبة فقط من خارج أسوار هذه الأرض، الذين يريدوننا متدفقين دائمًا، هنا يعيش الناس بشريتهم المطلقة، ليس الكل مستعدين لأدوار البطولة، الإنسان هنا كما هو في كل مكان يحب الحياة ويخاف الموت، لكن الكثيرين يرون مواجهة المحتل والإمعان في زعزعة منطقة راحته، وإشعاره دائمًا بأن وجوده لن يكون حقيقة مقبولة وجزءًا من حبهم للحياة، هناك حياة أخرى يؤمن بها هؤلاء، أزداد إيمانًا يومًا بعد يوم أنهم على صواب.

يبدأ اليوم الشهر الثالث منذ وصول أوراق ندى إليّ، عدت إلى عملي منذ مدة، لم أستطع مواصلة تجديد الإجازة، انتقلت رسميًّا للعيش في بيت والدي لأكون قريبًا من هاشم، الجنسية الكندية تفتح لي الطرقات هذه الأيام بعد توالي الانتقادات الدولية للاحتلال، عن سوء معاملة الأجانب والموظفين الدوليين، بطاقة الموظف الدولي

التي أحملها لم تكن لتشفع لي، لولا ذلك السلاح الذي ورثته عن أمي البيولوجية، الآن أصبحت فاطمة زوجة أبي أمي على أرض الواقع، لم أتوقع أن تتعلق بهاشم إلى هذه الدرجة، بدت لي جدته الحقيقية، سمعتها تقول لأبي إن الله عوضها عن عدم إنجابها بحفيده، رأيت تعويض الله أكثرَ وضوحًا منها، رأيته تعويضًا عن شراكتها مع شخص والدي في مسيرة الحياة، صعب المزاج، لاذع اللسان، متنطع الأفكار.

قالت ذات مرة: إن الحياة تسير بالجبر والكسر، كسرتها الحياة كثيرًا بعد وفاة والديها، ووقوعها تحت سطوة أخيها وزوجته، واستشهاد زوجها الأول في أحداث الانتفاضة الأولى، لكن الله عوضها ببيت آمن، ورجل يحتاج إلى امرأة مثلها، لا تهتم بالجدال ولا تريد مناطحة الحياة، ولا تتذمر من طباعه الغريبة.

ارتج صوتها في اتصالها الصباحي الذي اعتادت طمأنتي فيه على هاشم، أو طلب إحضار بعض أغراضه التي تنقصها، وهي تقول إنها المرة الأولى التي تشاهد والدي يستمع فيها إلى القرآن وهو يرتب مكتبته.

تبسمت من دهشتها، ولكنني لم أعلق على ملحوظتها التي أثارت عاطفتها.

وددت لو أخبرها أنه يحفظ كثيرًا من الآيات، وأنه كان كثيرًا ما يستعين ببعضها في حواراته وجدالاته، لإثبات ما تشربه من أفكار الكتب الماركسية التي تعج بها مكتبته، من أن الدين أفيون

الشعوب. هل بدأ الإيمان يدخل إلى قلبه؟ يشغلني ما أنا فيه عن الاسترسال في تحليل شخصية والدي، وفهم التغييرات التي تخبرني بها أمي فاطمة بين الحين والآخر. لا سيما بعد أن تلقيت اتصالًا من المحامي يوضح فيه عثوره على تفاصيل اعتقال ندى، وهي في طريقها للخروج من غزة برفقة إحدى حملات الوكالة لإجلاء موظفيها، بعد أن طال القصف والدمار معظم أبنيتها، وأصبح موظفوها أهدافًا مشروعة للنيران المتخبطة في بحثها عن معاقل مفترضة لاختباء من تسميهم مطلوبين.

لقائي بالمحامي أزاح جزءًا ضئيلًا من ثقل الصخرة، التي جثمت على أنفاسي منذ أشهر، قال إنها محتجزة إداريًّا في سجن عوفر، تمامًا كما توقع أبي، وإنها بلا تهمة واضحة سوى أن اسمها كان مدرجًا منذ بداية الحرب على غزة، مع قائمة أبناء الأسرى المطلوبين. لا أحد يعرف سبب وضع اسمها في القائمة في هذا التوقيت، كانت المرة الأخيرة التي تم استدعاؤها عندما تقدمت للعمل في الوكالة، حصلت على ورقة موافقة أمنية سعيت جاهدًا لإقناع والدي للتوسط لدى معارفه لحصولها عليها، بعد أن علقتُ تمامًا في صنارتها.

المواجهة الأولى التي جعلت أبي يكره ارتباطي بندى، عندما عرف أنها نطفة مهربة لوالدها الأسير، وأن أمها عاشت غريبة وماتت غريبة؛ حتى تحمي ابنتها من ثرثرة من حولها، وأنها ستظل مشبوهة بدون أي جرم في نظر من يتحكمون في رقابنا.

اقتنعت تمامًا أن اعتقالها في هذا التوقيت هو ردة فعل على ما يحدث في غزة، الكل متهم والكل مشتبه به، ارتباطها بوالدها الأسير، ووجودها في غزة أثناء العملية التي اقتحمت حصونهم في أكتوبر جعلها هي وغيرها في قوائم المطلوبين.

قال المحامي إنه سيقدم جميع الأوراق اللازمة التي تثبت أنها كانت في مهمة عمل رسمية، مع وكالة الغوث، وتقاريرها التي تؤكد التزامها الكامل بالعمل الأهلي والإنساني فقط، والتماسًا بإخراجها بغرامة مالية مع تعهد بعدم القيام بأي نشاط غير مرغوب فيه. هذه الصيغة الممعنة في الذل الذي ترفضه ندى كانت الوحيدة المناسبة، وافقت على اقتراح المحامي دون اعتراض، شيء واحد أريده الآن: أن أرى ندى ثانية.

بعد ثلاثة أسابيع أخبرني المحامي أنه تمكن من زيارة ندى، والحديث معها لمدة خمس دقائق، كان متلعثمًا جدًّا ومتوترًا للغاية، استعجلته للحديث لأنني على موعد مع إحدى دور النشر التي كنت قد اتفقت معها على نشر قصة ندى، أفتح الآن جهاز الحاسوب الذي طبعت على صفحاته حكايتها كما وصلتني؛ لأضيف شيئًا في ذيل الحكاية؛ لأنني تعهدت منذ البداية أن أبقي كل ما أرادته ندى كما هو:

أخبرني المحامي أنها سألته عن الشخص الذي كلفه بقضيتها، فأجابها أنه من طرف زوجها غسان ووالده. تردد كثيرًا قبل أن يقول:

ندى كلفتني أن أسير في إجراءات الطلاق.

ابتلعت غصتي، لم أعلق على كلامه، ظننت أن هذا هو سبب تلعثمه الوحيد، لكنه قال بعد هنيهة من الصمت إنها تعرضت لعملية استئصال كلية، وإن وضعها الصحي صعب. لم أعرف حينها من الذي كان يدور في حلقة بسرعة مخيفة، جسدي أم كل شيء حولي؟ يلتف دوامة هوجاء تردد صدى كلمات المحامي. عقلي يفتش عن معنى استئصال كلية في قاموسه فيفجعه المعنى الوحيد الذي يتردد في ذهني فأصرخ: هل تعرضت ندى لسرقة أعضائها؟ فيجيبني وجهه الواجم ونظراته المتحجرة، كأنه اعتاد الصراخ ممن هم مثلي في تاريخ مهنته وارتياده لمحاكم الاحتلال وسجونه.

أكتب الجمل الأخيرة، والأشياء ما زالت تدور من حولي، والدوامة تبتلعني وترمي بي في بحر هائج، تدور بي الجغرافيا، والمعجزات التي تحدث، والحواجز، وجنين وهاشم، وضحكة ندى المعاتبة كلما نعتها بالنطفة، وحاجز طيار جديد نصب للتو لتبدأ قصة جديدة في حياتنا.

عاهدت نفسي وكلّ من سيقرأ حكايتنا أنني لن أفلت يدها مرة أخرى مهما حصل. حتى لو أصرت على الانفصال، وحتى لو سرقوا جزءًا من جسدها، سأبقى دائمًا أعيش على أمل أن المعجزات ما زالت تحدث.

* *

فهرس

الفصل الأول

ذاكرة مبعثرة ودماء 15
ذاكرة البدايات: الحاجز 33
انثيالات في الخيمة 67
بين ريتا وجنين 83
الزنانة وقهر آخر 91
إسفين 99
بين غسان وغسان 113
غزة للمرة الأولى 121
المبنى 10 الشقة 7 133
أنا وغسان في غزة 145
العجلة تعود إلى مسارها 157
هاشم 169
هاشم مرة أخرى 187

الفصل الثاني

(المعجزات ما زالت تحدث) 195
ابن اليهودية 199
نطفة في قلبي 209

telegram @yasmeenbook